

وقفات على بلاد شنقيط

إعداد

مسعد حسين محمد

عضو باتحاد الكُتَّاب المسلمين

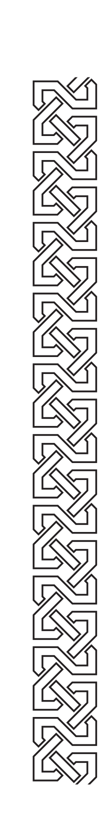
ومؤلف برابطة العالم الإسلامي

تقديم أصحاب الفضيلة

أحمد المرابط الشنقيطي — محمد الأمين الشنقيطي

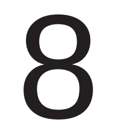
محمد عيسى الشنقيطي — لارباس بن المرابط الشنقيطي

عمر الحدوشي المغربي — يوسف الصلاحي اليمني



وقفات على بلاد شنقيط







الطبعة الثانية

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع

٢٠١٦/١٧١٢١م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-080-87



ص.ب: ٦١٠ ر. ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية
محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٣٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٣٠٣+
E-mail: alamia_misr@hotmail.com







وقفات على بلاد شنقيط

إعداد

مُسعَد حسين محمد

عضو باتحاد الكُتّاب المسلمين

ومؤلف برابطة العالم الإسلامي

تقديم أصحاب الفضيلة

أحمد المرابط الشنقيطي — محمد الأمين الشنقيطي

محمد عيسى الشنقيطي — لارباس بن المرابط الشنقيطي

عمر الحدوشي المغربي — يوسف الصلاحي اليمني



الدار العالمية للنشر والتوزيع




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة
العلامة أحمد المرابط الشنقيطي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد:

فقد قدم إلى الأستاذ/ مسعد حسين محمد المصري عضو اتحاد الكتاب المسلمين، والمؤلف برابطة العالم الإسلامي بكتابه الذي بعنوان (وقفات على بلاد شنقيط) لأطلع عليه وأبدي رأيي فيه فقلت الأبيات التالية تقريظا له:

قد جاء مسعد حسين أهلا	شنقيط يا أهلا به وسهلا
بوقفاته على بلاد شنقيط	أحيا ذكرها في النادي
فقد أقر العين والسمع اطبا	وقد أثار في النفوس العجبا
فهو وإن كان يراها تستحق	تراه للجميل منها يستحق
جدد ماضي العهد والمخالطة	من علماء مصر والشناقطة
فأهل شنقيط لهم تصديق	بأنه حق لهم صديق
كل له مقعد صدق قد سأل	لأن ما الجزاء إلا من جنس العمل

كتبه

أحمد المرابط بن حبيب الرحمن الشنقيطي

المفتي العام لدولة موريتانيا



مقدمة

العلامة محمد الأمين الحسن الشنقيطي



وصلى الله وسلم على خاتم وأكرم الأنبياء والمرسلين، وآله وصحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فجزى الله خيرًا وأجزل المثوبة عاجلا وآجلا لأخينا الكريم/ مسعد حسين على كلمته النبيلة وعبارته الجزيلة، ومرونته وأمانته الفريدة في نقله وحسن أدائه لما تحمله من الموريتانيين وغيرهم؛ وذلك في إعداده الشيق والأنيق الواضح الرقيق السلسل الرحيق «**وقفات على بلاد شنقيط**».

فنحن نشكره من فكرته وانتمائه بأسلوبه وحفاوته ولباقته وسهولته وفنيته ومهارته. النهج الذي عمله على إرادة الخير من أهله ولأهله. وربطه الوشائج بين البلدين عموما، وطموح أبنائها.

حفظ الله الجميع من مكاره الدنيا والآخرة وجمعهم على ما يرضيه عنهم. آمين.

محمد الأمين بن الحسن الشنقيطي

إمام وخطيب جامع القرآن الكريم

والمدير العام لمدارس العون الإسلامية

ورئيس رابطة علماء المغرب العربي



مقدمة

العلامة لارباس بن المرابط عبد الفتاح الشنقيطي

الحمد لله الذي جعل سير الأولين عبرة للآخرين ونبراسا للمهتدين، ودروسا للمتعلمين وقدوة للمقتدين بنهج السلف الصالح.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المرسلين وقائد الغر المحجلين، وعلى آله وصحبه والتابعين، وتابعي التابعين إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد اطلعت على مؤلف الشيخ الفاضل/ مسعد حسين محمد المصري السلفي الذي سماه (وقفات على بلاد شنقيط) فإذا به أجاد فيه وأفاد، شكر الله مسعانا ومسعاه ووفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه.

فمحبته لهذه البلاد ةوإعجابه بأهلها جعلته يكتب عن تاريخها وحاضرها، وعاداتها وأعلامها بأسلوب شيق ومنهجية جيدة، الأمر الذي يجعل هذا المؤلف صغيرا في الحجم، لكنه كبيرٌ في المضمون،



أضاف به مؤلفه- حفظه الله- لبنة جديدة في تاريخ بلاد شنقيط وأهلها، ولم يكتف بالسرد التاريخي عبر المرجع، بل دعم ذلك بالتنقل والمشافهة والمشاهدة، إذ ليس من رأى كمن سمع، وقد لاحظت في كتابه من الدقة والأمانة العلمية في التنقل الشيء الكثير، الأمر الذي يعكس بجلاء ما يتمتع به هذا المؤلف الفاضل من التحري فيما ينقله أو يشاهده.

فجزاه الله عن بلاد شنقيط وأهلها أحسن الجزاء، ووفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه، وقد قلت مقرظا:

بوقفات مسعد على البلاد أحسن فيها ابن الحسين وأجاد

وظف فيها سمعه وبصره بنقـــــله تاريخـها ما أبصره

ندعو الإله ربنا أن ينصره وسعـــــيه جميعـه أن يشكره

ثم الصلاة للنبي والمهره في شرعنـا والتابعـين الخيره

وكتبه

العلامة لارباس بن المرابط عبد الفتاح الشنقيطي

رئيس لجنة مراجعة المصحف بدولة موريتانيا



مقدمة
الشيخ العلامة محمد عيسى بن باباه الشنقيطي

أسعدتنا مسعد حسين بالعبق ... من نشر هذا الكتاب الطالع الفلق

بيضت وجها لشنقيط بخط يد ... لكم بديعا وما سودت من ورق

أبدعت وصف رحلة لكم شرفت ... شرفتمونا بها زادت لنا برقي

قد نوهت وأحسنت عند ذكركم ... لدور شنقيط في إيواء كل تقي

قد قاده طلب للعلم ... ألقى عصاهُ بها وبالعلوم لقى

تلقاه فيها تراحيب وأهل هدى ... صانوا إليه بتعليم على نسق

صان العلوم بإتقان ومنهجة ... من التكلف قد خلت ومن نسق

الذكر محكمه والفقه يدعمه ... أصل يسن له يعزى لمتفق

وصفت محضرة الشنقيط حاضنة ... تضم للغرباء الونهم وتقى

الطالبين من انزلاق فهمهم ... أو التطرف في فهم بمنزلق

لا غرو يا ابن الكرام إن صنائعكم ... طابت وسال لكم في العلم من عرق

جراء ترحالكم والبحث في جهة ... فيها وتخترق الفضا بمخترق

رمزا لتشجيعكم لأهل ملتكم ... ليحصل الشرف الأسمى لكم بلقى

أنت من مصر أم لذي عرب ... وقائد للسفينة لدى الغرق

أم الثقافات شتى حاضرا سلفا ... ما كان من سالف في الحاضرين بقى



والله يبقي لها من نوعكم زمرا إذا مضى طبق وافاه من طبق

ثم الصلاة على النبي خاتمة تقى المذعور يوم الشفاعة من حرق

كتبه

محمد عيسى بن باباه الشنقيطي

الأمين العام لاتحاد الناشرين الموريتانيين

ورئيس معهد دار البركة العلمي



مقدمة
الشيخ / عمر الحدوشي

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من علم أمته البيان وفهم.

أما بعد، فشاء الله أن التقي في معرض الكتاب بعاصمة شنقيط العلمية بأخي الفاضل جناب الشيخ والداعية الفاضل/ مسعد حسين محمد فرأيته شيخًا نشيطًا، يتوقد حيوية ونشاطًا وغيرةً على دين الله عز وجل، فأهدى إليَّ بعض مؤلفاته النافعة، ثم شاء الله أن ألتقي به مرة ثانية وثالثة ورابعة، وجلست معه جلسات طويلة وتجاذبنا وتناولنا فيها أطراف الحديث حول ما ينبغي أن يقدمه المسلم لخدمة هذا الدين، ثم أهدى إليَّ كتابه (وقفات على بلاد شنقيط)، وقد استمتعت بقراءته كثيرًا في الحقيقة، ووالله استفدت منه كثيرًا فقد أبدع والله فيه، فهو يرفع الهمة إلى السفر إلى بلاد العلم والعلماء والشعر والشعراء، فجزاه الله خيرًا، ونفع به وكثَّر فوائده ومد على الخلق عوائده

وصلي على الهادي مقيم الملة　　والآل والأزواج والذريـــــة

صـلى عليــه الأزلي الباقـي　　عليــه تسليمًا كثـيرًا باقــي

كتبه

عمر بن مسعود الحدوشي المغربي



مقدمة
الشيخ/ يوسف بن منصور الصلاحي اليمني

الحمد لله تعالى، والصلاة الزاكية على نبيه محمد تتوالى.

وبعد

فقد اطلعت على كتاب أخي الشيخ/ **مسعد حسين محمد** - نفع الله به- المعنون له (وقفات على بلاد شنقيط) فألفيته كتابا ماتعا نافعا.

وقد أحسن - وفقه الله تعالى- في إظهار محاسن هذه البلاد بما يبعث الهمم ويحرك العزائم والإرادات، ولعل ذلك ما كان يبغي- حفظه الله.
وأبرز ما أدار عليه كتابه ما يكاد ينفرد به أهل هذا القطر من الاهتمام بالحفظ والضبط، وهو بهذا يستحث طالب العلم لجعل الحفظ أهم الطرق التي يحصل بها العلم الشرعي.
والكثير من إخواننا الدعاة وطلبة العلم من يتشوف للوقوف على أخبار القوم في شنقيط، والاطلاع على أحوالهم، مع عدم تمكنه من المجيء إليها، فجاء الكتاب وافيا بهذا المقصود، كافيا فيه، ولعل سماع أخباره تقوم مقام رؤيته كما قال الرضي:

فاتني أن أرى الديار بطرفي فلعلي أرى الديار بسمعي

المحوج إلى ربه
يوسف بن منصور الصلاحي اليمني
عضو هيئة كبار علماء اليمن



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يسر لي بمنه وكرمه أن أسافر إلى بلاد شنقيط وأجلس مع كثير من العلماء وطلبة العلم والمهتمين بالدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقد كانت -ولله الفضل والمنة- رحلة موفقة ولله الحمد، فاستفدنا وأفدنا، وقد أشار عليَّ كثير من إخواني طلبة العلم أن أكتب رسالة عن بلاد شنقيط، أساهم بها في بيان منهج وعقيدة الشناقطة، وأن أكشف اللثام عن أسباب ذيوع العلم في بلادهم، وأسباب قوة الحفظ عندهم، والتعريف بأعلام المنهج السلفي والتنويه بهم، اعترافًا بالجميل وتشجيعًا وشحذًا للهمة في الحذو حذوهم في طلب العلم وتعليمه؛ لأنهم حقيقة ما حلّوا بقطر من الأقطار الإسلامية إلا وخلّفوا فيه ذكرًا حسنًا، واستأثروا بإعجاب أهله. وكذلك لأضيف



إلى المكتبة الإسلامية إضافة جديدة عن هذا القطر ليستفيد منها طلبة العلم والدعاة.

فقمت بكتابة نبذة عن تاريخهم، وقوة الحفظ عندهم، وأسباب ذيوع العلم عندهم، وكيفية تدريس القرآن والعلوم الشرعية عندهم، وكريم أخلاقهم وتواضعهم، حتى أصبحت بلادهم قبلة لطلبة العلم من بعض الدول العربية ودول أفريقيا. وقد كنت حريصًا حرصًا شديدًا خلال رحلتي عن السؤال عن كل ما يتعلق بالعلم وأهله، وزيارة المشايخ والعلماء، وقد أسدوا لي كثيرًا من المعروف، وأتاحوا لي كثيرًا من الفرص الدعوية. فأردت أن أنزل على رغبة إخواني، وأقدم هذه الرسالة لينتفع بها إخواني الدعاة، وهي في الحقيقة إضافة متواضعة على قدر جهدي، أسأل الله أن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم، فهو من وراء القصد، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

كتبه

مسعد حسين محمد آل سعد

عضو باتحاد الكتاب المسلمين

ومؤلف برابطة العالم الإسلامي





تمهيد

أَوَدُّ قبل أن أكشف اللثام عن بلاد شنقيط من الناحية العلمية والدعوية والجهادية، أن أقوم بتعريف موجز عن بلاد شنقيط، وعندما يُطلق اسم بلاد شنقيط فالمقصود به (دولة موريتانيا).

تُعتبر موريتانيا هي الدولة الثالثة بعد المائة من دول الأمم المتحدة، والتاسعة عشرة من دول الجامعة العربية، وهي تقع على الحدود الغربية للوطن الإسلامي، يحدها من الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب دولة السنغال، ومن الشرق دولة مالي، ومن الشمال الشرقي دولة الجزائر، ومن الشمال الصحراء المغربية وحدود دولة المغرب.

واقتصاد البلاد يقوم على مصادر خمسة: الثروة الحيوانية، والثروة الزراعية (وهي ضئيلة جدًّا؛ لأن البلاد مرت بالتسحُّر في الستينيات من القرن الماضي)، والتجارة، والثروة السمكية، ومناجم الذهب والحديد والملح. وهي في مجملها صحراء قاحلة قاسية المناخ، كثيرة الهضاب والسهول والرمال. وينقسم شعبها إلى قسمين البيضان[1] وهم يميلون في لون بشرتهم إلى السمرة.

---

(١) **البيضان**: هم في اصطلاح الموريتانيين من يتكلم اللهجة الحسانية، واللهجة الحسانية هي أقرب لهجات المغرب الإسلامي إلى اللغة العربية الفصحى.





والزنوج: ويطلق عليهم محليًّا السودان، ويمثل البيضان نسبة ستين في المائة من جملة الشعب، ويقوم البناء الاجتماعي القبلي في هذا الشعب على أسس أهمها: وحدة الدم، ووحدة الجماعة، فهم لا يشكلون بمقاييس الدراسة العرقية جماعة واحدة متحدة الأصل، متجانسة الصفات، بل على العكس من ذلك، فهم جماعات مختلفة في أصولها متنوعة في صفاتها، من الأفارقة والبربر والعرب، كونت شعبًا اختلطت فيه العناصر اختلاط تآلف وإخاء، في ظل الإسلام وعدالته السمحة.

ويمتاز هذا الشعب بالاهتمام بدراسة العلوم الشرعية، واللغة العربية، وإقامة شعائر الدين، كما يمتاز أيضًا بالتقوى والورع والعفة والحلم والصبر والكرم.





وقفة تاريخية
عن بلاد شنقيط

شنقيط[١]: كلمة بربرية[٢] ومعناها: عيون الخيل، أو عيون الجبل.

وهي تقع في الصحراء جهة الشمال من دولة موريتانيا، وقد كانت قديمًا مُنطلقًا للتجارة، وكانت تجتمع فيها قوافل التجارة إلى بلاد المغرب العربي والشام ومصر وأفريقيا، وقد عرفت الهجرة إليها حتى قبل الإسلام، وهي بلاد منخفضة كثيرة الهضاب والسهول والكثبان الرملية، وكانت شنقيط قبل الإسلام تدينُ بالوثنية، وكانت تابعة لمملكة غانا الوثنية، وكان سكانها الأصليون الأفارقة والبربر، ثم هاجر إليها كثير من العرب من اليمن والجزيرة العربية ومصر،

(١) **شنقيط**: اسم عم الإقليم كله وهو من باب إطلاق الجزء على الكل، ومن باب إطلاق الخاص على العام، وهو الذي يُطلق اليوم على دولة موريتانيا وهي بلاد شنقيط، ونالت هذه الشهرة بهذا الاسم؛ لأنها كانت مركز البلاد، وقبلة لجميع سكان الإقليم، يجتمعون فيها استعدادًا لرحلاتهم وأسفارهم من بلادهم إلى بلاد المغرب والمشرق. تاريخ شنقيط (ص٥٢) محمد الأمين بن عمر يبني.

(٢) **البربر**: هم أبناء حام، كما أن العرب والعجم أبناء سام، والبربر كانوا أمة وكان لهم لغة منفصلة، ولكنهم انصهروا مع العرب وحدث بينهم تجانس وتصاهر وأصبحوا أفرادًا متناثرة في بلاد شنقيط والمغرب والجزائر وتونس ولم يكن لهم الآن كيان أو تكتل بشري.

والبربرة: هي كثرة الكلام والجلبة، والبربر: جيل وجماعة. القاموس المحيط (ص٤٤٥) للفيروز أبادي.

وحدث بينهم تجانس وتصاهر وشكلوا شعبًا تربطهم فيه وحدة الدم والنسب، وأطلق اسم بلاد شنقيط على ربوع دولة موريتانيا وهو من إطلاق الجزء على الكل؛ لأن هذه البلاد عرفت عبر تاريخها الطويل بأسماء كثيرة جدًّا، منها: بلاد صنهاجة الجنوب، وصنهاجة الرمال، وبلاد شنقيط، وصحراء الملثمين، ودولة المرابطين، وبلاد لمتونة، وبلاد التكرور، ولعل الاسم الأكثر زيوعًا في بلاد الإسلام والوطن العربي بلاد شنقيط.

وهم بَدْوٌ رُحّل وقبائل، ولم تكن لهم دولة، وكانت تربطهم تجارات وعلاقات بسلاطين المغرب العربي وممالك أفريقيا.

دخول الإسلام بلاد شنقيط:

وصل الإسلام إلى بلاد شنقيط عبر التجارة في بداية القرن الأول للهجرة قبل الفتح الإسلامي[١]، وظلت بلاد شنقيط يقطن فيها مجموعة من القبائل بعد أن دخلها الإسلام حتى جاء الفتح الإسلامي وفتحت بلاد المغرب وشمال أفريقيا وكثير من البلدان،

(١) وصل الإسلام إلى بلاد المغرب بصفة عامة في القرن الأول للهجرة، وذلك عن طريق الغزوات التي قام بها الفاتحون لمنطقة شمال أفريقيا والأندلس، أمثال: معاوية بن خديج الكندي، وعقبة بن نافع الفهري، وأبي المهاجر دينار، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير وغيرهم. فتوح مصر وأخبارها (ص١٩٢) لابن عبد الحكم، وانظر: تاريخ المغرب والأندلس (ص٣٦) لأحمد مختار العبادي.



ودارت معارك عظيمة بين المسلمين والزنوج الوثنيين، وأسلم كثير من الناس، وحقق المسلمون نصرًا عظيمًا حتى استشهد عقبة بن نافع، وارتد كثير من قبائل البربر عن الإسلام.

ثم أرسل هشام بن عبد الملك ما بين عامي مائة وأربعة عشر ومائة وثلاثة وعشرين للهجرة عبد الله بن الحبحاب واليًا على إفريقية وكان ذلك بداية لتوطيد دعائم الإسلام وإرساء مبادئه في النفوس وتعميمه على القلوب، خاصة وقد فتح عقبة بن نافع الطريق للتجار المسلمين الذين تدفقوا إلى هذه الديار، ونشروا رسالة الإسلام حتى وصلوا إلى أواسط أفريقيا.

وقد ظهر في العقد الأول من القرن الثالث الهجري إقبالًا متزايدًا على الإسلام كان له أثره البالغ على القبائل.

وبعد حين من الزمن، دبت عوامل الفرقة والضعف، وافترق الناس شيعًا وأحزابًا ما يقرب من مائة وعشرين عامًا(١).

بعد هذا التفرق، قام فيهم زعيم يُسمى أبو عبد الله بن تيفاوت ويُعرفُ بتاشرت اللمتوني، فاجتمعوا عليه، وأحبوه وكان من أهل الدين والصلاح والعقل الراجح.

---

(١) قيام دولة المرابطين (ص٧٢) لحسن أحمد محمود.



عمل هذا الرجل الصالح على توحيد القبائل في بلاد شنقيط وعلى مواصلة الجهاد ضد الوثنية حتى نال الشهادة سنة أربعمائة وواحد وثلاثين هجرية وهو يُطارد الوثنيين في إحدى غزواته ضد الزنوج الوثنيين في الممالك الزنجية المجاورة لدولة موريتانيا في الجنوب(١).

وبعد وفاته تولى الحكم بعده صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي والذي يُعتبر أحد المؤسسين للمنهج السلفي الذي تمخضت عنه قيام دولة المرابطين(٢).

تولى يحيى بن إبراهيم الجدالي زعامة الملثمين(٣)، وكان راجح العقل، بعيد النظر، شديد الحماس للدعوة الإسلامية، وأدرك أن

---

(١) تاريخ دولة الإسلام بالمغرب الأقصى (ص٣٣).

(٢) اسم دولة المرابطين: أُطلق على مجموعة كبيرة من القبائل التي كانت تسكن بلاد شنقيط، ويرجع نسب هذه القبائل إلى العرب القحطانيين والحميريين، وقد كان لها أثر ملحوظ في تاريخ المغرب الإسلامي ونشر لواء الإسلام في شمال وغرب إفريقيا، وممن جزم بعروبتها ابن سلام وابن الكلبي، والزبير بن بكار، والطبري، والهمداني، والجرجاني، والسمعاني، وابن الأثير، والكلبي، وابن الخطيب، والفيروزأبادي، واليعقوبي، وعبد الحق المالكي، وصاحب كتاب عمود النسب. المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (ص١٢٠) لابن أبي زرع الأنيسي ط. دار المنصور.

(٣) **الملثمون**: هم القبائل التي كانت تسكن صحراء بلاد شنقيط، وعرفت هذه القبائل بالملثمين؛ لاتخاذهم اللثام شعارًا يميزهم عن غيرهم من قبائل المنطقة إلى يومنا هذا، فلا يُفارقهم اللثام في حال من الأحوال، وقد سُميت بلاد شنقيط في زمن من الأزمنة وفي مرحلة من مراحلها التاريخية بدولة الملثمين، وقد اختلف =



أحلاف الملثمين السابقة لم تستطع إسقاط حكام غانا الوثنيين، بسبب جهل الملثمين لتعاليم الإسلام، وضعف حماسهم للجهاد، فترك أمر الملثمين لابنه إبراهيم بن يحيى، وتوجه إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج، وعند عودته مر بمدينة القيروان، وتتلمذ على يد أبي عمران الفاسي إمام المالكية بالمغرب في وقته[1]، وشكا إليه عدم وجود معلم يعلم الناس، وطلب منه أن يبعث معه من يقوم بتعليم الدين الإسلامي للملثمين حيث قال له: إننا في الصحراء منقطعون، لا يصل إلينا إلا بعض التجار حرفتهم الاشتغال بالبيع

= في سبب اختيار اللثام شعارًا لهذه القبائل... فيرى البعض أن ذلك لأسباب صحية تعود لاتقاء الحر والبرد والغبار، وقيل: إن سبب اللثام هو أن طائفة من القبائل خرجوا مغيرين على عدوهم فجاء العدو بعدهم إلى بيوتهم، وليس فيها إلا المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ من العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن حتى لا يُعرفن، ويلبسن السلاح، فلما أشرف العدو ظنهم رجالًا فهابهن، وقبل أن يغادر العدو أقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء، وقتلت هذه القبيلة من عدوهم خلقًا كثيرًا. ومن ذلك الوقت جعلوا اللثام شعارًا يلازمهم إلى اليوم. وقيل: سبب اللثام هو شدة غلبة الحياء عند الرجال، وقيل: إن الملثمين أخذوا عادة اللثام عن زنوج إفريقيا المحاربين الذين استخدموا اللثام والأقنعة لدفع الشر عنهم. انظر: الكامل (٨/ ٧٦) لابن الأثير، وانظر: تاريخ المغرب والأندلس (ص٢٦٩) لأحمد مختار العبادي ط. دار النهضة، وانظر: قيام دولة المرابطين (ص٥٠) للدكتور حسن أحمد محمود.

(١) أبو عمران الفاسي أصله من فاس من بلاد المغرب من بيت مشهور استقطن القيروان وحصلت له بها رياسة العلم، وله اليد الطولى في القرآن وعلومه، والحديث والفقه.



والشراء، وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن لو وجدوا من يقرؤهم القرآن، ويدرس لهم العلم، ويفقههم في دينهم، ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسُّنة، ويعلمهم شرائع الإسلام، فابعث معي من تلاميذك من يقوم بذلك وسيكون لك الأجر العظيم، والثواب الجسيم عند الله عَزَّوَجَلَّ[١]، وقد استجاب أبو عمران الفاسي لهذا الطلب، وأرسله إلى أحد تلاميذه النابهين الزاهدين وهو وجاج بن زلو بالمغرب الأقصى وعهد إليه أن يتلمس له من يثق بدينه وعلمه ويُروض نفسه على مسغبة أراضيهم في معاشه[٢]، فاختار له وجاج شابًّا فقيهًا نابهًا صالحًا، شهمًا من تلامذته يعرف لسانهم وطبائعهم وهو عبد الله بن ياسين[٣].

وسافر عبد الله بن ياسين مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، ولما وصل الركب إلى ديار الملثمين، نزل الأمير يحيى بن إبراهيم عن راحلته، وأخذ بزمام البعير الذي عليه عبد الله بن ياسين، تعظيمًا له،

---

(١) الأنيس المطرب بروض القرطاس (ص١٢٢) لابن أبي زرع.

(٢) العبر (٦/ ١٨٢) لابن خلدون.

(٣) **عبد الله بن ياسين**: ولد في مدينة أودغست في أوائل القرن الخامس الهجري، ورحل إلى مدينة العلم بالمغرب وتلقى العلم فيها، ثم غادر المغرب إلى الأندلس ولبث فيها سبع سنين حصل خلالها على علوم كثيرة، ثم رجع إلى المغرب الأقصى وأخذ العلم من وجاج بن زلو، وكان من فقهاء المالكية، وكان يعرف بالزهد والبعد عن السلطان والتمسك بالكتاب والسُّنة على طريقة السلف.



وقدمه إلى الحاضرين قائلًا: «هذا عبد الله بن ياسين مُحيي السنة، جاء ليعلمنا أمور ديننا، ويدعونا إلى ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فأقام يحيى بن إبراهيم لعبد الله بن ياسين رباطًا في جزيرة قرب نهر السنغال وقيل: على شاطئ المحيط الأطلسي، ليُتيح له لونًا من الحماية من المشاغبين، وحتى يتمكن من تعليم الناس دين الله عَزَّ وَجَلَّ، فسمع الناس بأخباره، وأقبلوا يفدون إليه، ولم تمض أشهر حتى اجتمع له خلق كثير فحرص على تكوين جيل من الدعاة القادرين على حمل مسئولية الدعوة الإسلامية طبقًا لمنهج السلف.

فأصبح للمرابطين مركز قويٌّ للدعوة الإسلامية هابه الأعداء، فلما بلغ عدد المرابطين ألف رجل من أشراف الملثمين. قام عبد الله بن ياسين فيهم خطيبًا فوعظهم ودعاهم إلى الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، وجعل قيادة الجيش للأمير يحيى بن عمر فقام بجهاد الوثنيين، فلما قُتل اختار أخاه أبا بكر بن عمر وظل هو بمنأى عن مباشرة القيادة، ولكنه رسم لهم السياسة وفق أحكام الشريعة الإسلامية، وكان مشتغلًا بتدريس العلوم الشرعية والدعوة إلى الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوالت انتصارات المرابطين في المعارك، وقويت شوكتهم وازداد نفوذهم، حتى قاموا أيضًا بالقضاء على الفرق الضالة، وانتشرت دعوتهم الخالية من البدع والشوائب حتى عمت المنطقة كلها، وقد قدر الله عَزَّ وَجَلَّ لشيخ المرابطين عبد الله



ابن ياسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يرزق الشهادة في المعارك الضارية التي دارت بين المرابطين وأعدائهم حيث أصيب بجراح شديدة توفى على إثرها عام أربعمائة وواحد وخمسين هجرية، ودفن على مقربة من مدينة الرباط العاصمة الحالية للمملكة المغربية، ورسخت أقدام المرابطين، فاتجهوا إلى إقامة دولة منظمة ذات هياكل ثابتة، ولها عاصمة تكون مقرًّا للسلطة المركزية، ثم تطلع أبو بكر بن عمر لفتح الممالك الزنجية الوثنية المجاورة بالجنوب، واستخلف يوسف بن تاشفين على حكم البلاد بعده، وترك له بعض الجيش، وسار هو بالبعض الآخر للجهاد في الجنوب وبعد استشهاد أبي بكر بن عمر أصبح يوسف بن تاشفين هو الحاكم الشرعي للدولة المرابطية، ويعتبره كثير من الباحثين هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة؛ لأنه هو الذي نظمها ووطد أركانها وأعطاها كيانًا دوليًّا ثابتًا.

ولم تعرف بلاد شنقيط (موريتانيا) تاريخًا قبل ذلك، وقد عمل يوسف بن تاشفين على إخضاع الدولة للمنهج الإسلامي عقيدة وشريعة، وصارت دولة المرابطين تتمتع بوحدة قوية قائمة على العقيدة الصحيحة، وتطبيق الشريعة الإسلامية[(١)] ولم يكتف المرابطون بذلك، بل تجاوزوا ذلك، وأنقذوا الأندلس من خطر

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص٣٠٣) أحمد مختار العبادي، وانظر: فتح الأندلس (ص٣٠٦) لأحمد مختار العبادي.



النصارى، بعد أن عظم البلاء على المسلمين في الأندلس من قبل النصارى، فاستنجد المعتمد بن عباد وهو أعظم أمراء الأندلس بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فجهز جيشًا جرارًا وقاده بنفسه، ودخل بلاد الأندلس من مدينة سبتة المغربية، واشتبك مع النصارى، وكانت موقعة الزلاقة حاسمة حيث انهزم جيش النصارى تمامًا وعز الإسلام وأهله في الأندلس، وكانت دولة المرابطين من أعظم أسباب عدم سقوط الأندلس بعد الله عَزَّوَجَلَّ، بل كانت سببًا في تأخر سقوط الأندلس أربعة قرون(١).

وأصبحت الدولة المرابطية دولة عظيمة؛ لأنها كانت تهدف لنشر العقيدة الصحيحة ورفع راية الجهاد في سبيل الله، ونصرة دينه وإعلاء كلمته، وتطبيق الشريعة الإسلامية، حتى عم الخير في عهدهم وازدهرت الحياة في أرجاء الدولة المترامية الأطراف، وتوفى يوسف بن تاشفين سنة خمسمائة هجرية على الراجح، وتولى الحكم من بعده ابنه علي يوسف بن تاشفين، ثم حفيده يوسف بن علي بن يوسف بن تاشفين، ولم تُعمر الدولة المرابطية كثيرًا؛ فقد مكثت تحكم البلاد ما يقرب من مائتي سنة وانتهى حكمها في عهد حفيد يوسف بن تاشفين وهو يوسف بن علي بن يوسف بن تاشفين على يد دولة الموحدين التي تزعمها ابن تومرت المتوني، الذي زعم أنه

(١) دولة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين (ص٣٠٧) لسلامة الهرفي.



المهدي المنتظر الذي يأتي في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلًا كما مُلئت جورًا، فعظم اعتقاد الناس فيه وناصرته قبيلته، وازدادت طاعتهم له، واستغل شعار الدعوة الإسلامية ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يكون سببًا في نصب العداء لدولة المرابطين وسببًا في سقوطها.

وكان هذا الرجل ماهرًا في أساليب المكر والخداع والحيلة، وكان سفّاكًا للدماء، يهون عليه قتل المسلمين لهوى في نفسه وحتى يبلغ غرضه، وسرعان ما وجه همه إلى دولة المرابطين، وأعلن عليها حربًا لا هوادة فيها، وظل يؤلب القبائل عليها حتى دارت بينه وبين دولة المرابطين حربًا شديدة انتهت بسقوط دولة المرابطين حتى تفككت الدولة المرابطية وأصبحت إمارات متعددة المشارب بعضها يُحكم الشريعة، والبعض الآخر لم يُحكم الشريعة، واستمرت على هذا النحو ردحًا من الزمن. بعضها اندثر واختفى نتيجة للصراعات والمعارك، وبعضها عمر طويلًا حتى أدركه المحتل الغربي بعد سقوط الأندلس، والقضاء على التواجد الإسلامي والعربي في الأندلس، بدأ التواجد الأوروبي في بلاد الأندلس وعندها اشرأبت أعناق سكان منطقة الجنوب الأوروبي إلى اكتشاف الساحل من المحيط الأطلسي من منطقة شمال غرب أفريقيا حيث تقع بلاد شنقيط (موريتانيا)[١]

(١) **موريتانيا**: كلمة لاتينية معناها أرض الرجال السمر.



منطلق ومنشأ دولة المرابطين، فصار نزاع بين الغزاة الأوروبيين على بلاد شنقيط وذلك لما لها من أهمية اقتصادية. فاحتلها المحتل البرتغالي ثم انتزعها منه المحتل الأسباني، ثم احتلها الهولنديون ودخلوا في صراع وجدل مع الفرنسيين. واستقر الأمر على استصدار السلطان الفرنسي قرارًا يقضي بتأسيس مُستعمرة تدعى (موريتانيا)، وفي سنة ألف وتسعمائة واثنتين ميلادية تمت المصادقة على احتلال موريتانيا من قبل المحتل الفرنسي.

وقد قاوم الشناقطة المحتل الفرنسي مقاومة قتالية ومقاومة ثقافية عظيمة، وكبدوا المحتل خسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات، وجرت بينهما معارك كثيرة ومشهورة طوال مدة الاحتلال، وتكونت حركات شبابية وحزبية تكاتفت وتعاضدت حتى شكلت وحدة وطنية عظيمة لعبت دورًا مهمًا في المطالبة بالاستقلال، حتى قامت فرنسا بعمل استفتاء سنة ألف وتسعمائة وثمانٍ وخمسين منحت فيه فرنسا حق خيار البقاء أو الانفصال لمستعمراتها، واجتمعت معظم الفصائل السياسية والقبلية على المطالبة بالاستقلال.

وفي سنة ألف وتسعمائة وستين ولدت الدولة الموريتانية، وقد حاول الشناقطة تسمية دولتهم الوليدة المستقلة بدولة المرابطين أو دولة الملثمين، ولكن المحتل الفرنسي رفض رفضًا شديدًا، وأصر





على تسميتها بالدولة الموريتانية، وحاول المحتل أيضًا الضغط على الشناقطة لعمل عملة إفريقية تجمع موريتانيا مع دولة مالي ودولة السنغال، وأعاد تحديد الحدود بين بلاد شنقيط (موريتانيا) وبين دولة مالي والسنغال والجزائر والمغرب حتى يتم فصل موريتانيا عن هويتها العربية، وحاولوا الضغط عليها ولكن كان الرفض من الشناقطة إلا أن تكون موريتانيا دولة إسلامية عربية، وأن تكون لها عملة مستقلة عربية وهي (الأوقية)، وأن تكون اللغة الرسمية هي اللغة العربية، وكان أول رئيس للدولة الموريتانية بعد جلاء الفرنسيين عنها هو الرئيس المختار ولد داداة.







العقيدة السلفية في بلاد شنقيط

مرت العقيدة في بلاد شنقيط (موريتانيا) بمراحل كغيرها من الأقطار الإسلامية، فقد ظل مذهب السلف هو السائد حتى سنة أربعمائة وثلاثين هجرية، وبعد سقوط دولة المرابطين[١] سادت العقيدة الأشعرية في شنقيط، وغاب المنهج السلفي ردحًا من الزمان، حتى قام الإمام ناصر الدين[٢] بدعوته السلفية الإصلاحية فانقسم الناس في مشاربهم العقدية إلى ثلاث طوائف، السلفيين وكانوا قليلين، والأشاعرة على مذهب أبي الحسن الأشعري، والصوفية[٣].

وتعتبر أهداف دعوة الإمام ناصر الدين بمثابة إحياء لدعوة المرابطين والرجوع إلى الكتاب والسُّنة، والأمر بالمعروف والنهي

(١) إن أبرز ما تميزت به دولة المرابطين منهجها الإسلامي السلفي القائم على نصوص الكتاب والسنة، وهي واحدة من أبرز الدول الإسلامية التي تأسست على المنهج الإسلامي السلفي الخالص من الشوائب والبدع.

(٢) هو الفقيه المجاهد أبو بكر بن أبهم بن الفغ، وهو من قبيلة تسمى الشمشوية، عاش في القرن الحادي عشر الهجري، واشتهر بالتقوى والورع والعفة، ونصرة الدين ورفع راية الجهاد. نظرة تاريخية إلى شربية (ص٢٠) لمحمد المختار بن السعد.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص٢٠٢) لعبد الواحد المراكشي.



عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وظلت دعوته تخدم الدين حتى استشهد سنة ألف وخمس وثمانين هجرية.

ثم نشأت المدرسة السلفية على يد المجدد المجيدري بن حبيب الله[١] عندما عاد من رحلة علمية زار فيها عددًا من الأقطار الإسلامية، وقد تأثر بالعقيدة السلفية وبدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التي كانت حينذاك قائمة في نجد وما حولها، وحفلت حياته بالنشاط العلمي والدعوة إلى عقيدة السلف الصالح ومنهجهم حتى توفى في عام ألف ومائتين وأربعة هجرية.

وحمل لواء مدرسته من بعده بعض تلامذته حتى جاء العلامة المحدث سيدي بن سيدي محمد المشهور باسم الشيخ سيدي باب، كان مجددًا للمنهج السلفي حتى توفى عام ألف وثلاثمائة واثنين وأربعين هجرية، وفي سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين هجرية انتشرت العقيدة السلفية انتشارًا عظيمًا على يد محمد الأمين[٢].

---

(١) هو كمال الدين محمد بن حبيب الله، اشتهر بلقبه المجيدري الذي لقب به وهو صغير، ولد في بلاد شنقيط سنة ١١٦٥هـ من أسرة متدينة من قبيلة اليعقوبيين الشمشوية. حياة موريتانيا (٢/ ٣٢٩) للمختار بن حامد.

(٢) اسم الأمين، والمختار، والماحي، وسيدي والعاقب من الأسماء التي غالبًا ما تقترن باسم محمد وأحمد عند الشناقطة تيمُّنًا وتعبيرًا عن حبهم لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.



والواقع أن الشيخ محمد الأمين هو أبرز هؤلاء العلماء جميعًا، وربما هو أبرز علماء القرن الرابع عشر الهجري في بلاد شنقيط. ولقد أثر الشيخ الأمين رحمة الله عليه على العقيدة في القطر الموريتاني، وكان شديد الاهتمام بما يعود على بلاد شنقيط بالنفع خاصة فيما يتعلق بالعقيدة التي هي جوهر الدين وأساسه. وكان له أثره الكبير في التحريك إلى العمل الإسلامي، والتوجيه إليه، ضمن المنهج السلفي السليم، البعيد عن البدع والخرافات[(١)].

ولما فتحت الجامعة الإسلامية توافد عدد كبير من الشناقطة على الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عند افتتاحها، وكان من قدر الله أنهم وجدوا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدرسًا بهذه الجامعة، وقد كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حريصًا على تكوين جيل من شباب المسلمين قادرًا على ممارسة الدعوة الإسلامية بجدارة، ويستطيع النهوض بالمجتمع الإسلامي.

وبعد وفاة الشيخ تولى الدعوة السلفية من بعده أبرز الدعاة السلفيين كالشيخ أحمد المختار وهو من أنجب تلاميذ الشيخ، والشيخ محمد عبد الله بن الصديق، والشيخ محمد المختار بن سيدي محمد والشيخ محمد بن ماديك، والدكتور محمد الخضر الناجي ضيف الله والدكتور محمد بن سيدي الحبيب، والشيخ الحسن بن

---

(١) لمحات فيصلية (ص١٢) لمحمد الخضر الناجي.



عبد الرحمن وغيرهم من أهل العلم السلفيين وهم كثر حقيقة وأغلبهم من تلامذة الشيخ الأمين[١].

وانتشرت العقيدة السلفية السُّنية في ربوع بلاد شنقيط، وبدأت تتوارى وتندحر البدع وأصحابها والداعون إليها، حتى جاءت دعوة الشيخ بُداه البصيري[٢] فعمّ القطر الشنقيطي الصبغة السنية السلفية، وقد ركزت دعوته على إنشاء المدارس والمعاهد وشرح كتب السلف، كشرح العقيدة الطحاوية، والدرّ النضيد، وتفسير الطبري، والقرطبي، وتفسير القرآن العظيم، وفتح القدير للشوكاني، وموطأ الإمام مالك، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وفتح الباري، ونيل الأوطار، وسبل السلام، وفي الأصول: الورقات للجويني، وألفيّة العراقي في الفقه، وألفية ابن مالك في النحو والصرف.

وقد نشأ في عهده عدة مدارس سلفية: وهي مدرسة العون للتعاليم الإسلامية، ومعهد الفاروق، ومدرسة أحمد بن المرابط،

---

(١) كل هؤلاء العلماء حفظوا القرآن، ودرسوا علوم الشريعة من كل الفنون في الجامعة الإسلامية، ومكثوا بالمملكة العربية السعودية، واستقروا ببلاد شنقيط.

(٢) بُداه البصيري: هو محمد بن البصيري، وقد اشتهر بلقبه (بداه) ويقال له محمد بداه جمعًا بين الاسم، واللقب، ويُعد من أبرز العلماء السلفيين، وكان المفتي العام لدولة موريتانيا وإمام جامع الملك فيصل في وسط نواكشوط، وقد ولد الشيخ بداه عام ألف وثلاثمائة وثمانية وثلاثين هجرية من أبوين صالحين من إحدى قبائل المرابطين، وقد التقيت بكثير من العلماء والمشايخ من تلاميذته وقرأت كثيرًا من كتبه، فكان رحمة الله عليه واسع الفكر بعيد المدى غزير العلم.



ومدرسة محمد محمود بن أحمد يور، وازدهرت العقيدة السلفية ازدهارًا عظيمًا بعد أن عاد كثير من الطلاب الذين كانوا يدرسون في المملكة العربية السعودية بعد نهاية تكوينهم العلمي، وهم يحملون العقيدة السلفية الصافية ويدعون إليها، ويدافعون عنها، وتم إنشاء المعاهد السلفية بعضها بالتعاون مع الحكومة، وبعضها حر.

ومنها: مدرسة الفلاح، وجمعية الدعوة السُّنية السلفية، ومعهد العلوم الإسلامية العربية، ومركز الدعوة السعودي، والمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، ومعهد ابن عباس، ومدرسة الهدى لتحفيظ القرآن الكريم، والمعهد الإسلامي السلفي. هذا بجانب المحاضر التعليمية المنتشرة بكثرة في الحضر والبادية.

وترحب بكل من هو وافد خاصة من البلاد العربية وأصبحت لا تسير في شارع أو تلتقي ببعض المشايخ أو بعض المؤسسات الدعوية والعلمية، أو بعض المحطات التلفزيونية أو الإذاعية إلا عرضوا عليك المشاركة في عمل دعوي، إما بإلقاء بعض المحاضرات أو تسجيل بعض اللقاءات فهم -ولله الحمد- في عافية سياسية، والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ليس لها سقف.

ولقد غادرت البلاد، وهي -ولله الحمد- مشعل هداية وإصلاح، وبها كثير من المؤسسات العلمية والدعوية الحر منها والتابع للدولة



مثل: الجامعة الإسلامية، والمعهد العالي للدراسات، وجامعة شنقيط الحرة، وجامعة عبد الله بن ياسين، بجانب المحاضر، وهي كثيرة ويصعب حصرها.







المحاضر الشنقيطية



المحاضر: جمع محضرة، وهي مؤسسات تعليمية إسلامية نشأت في بلاد شنقيط لتكون أداة لنقل المعارف العلمية، وإرساء للدين الإسلامي، وقد ظهرت هذه المحاضر في بداية القرن الرابع الهجري، وكان رباط عبد الله بن ياسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو النواة الأولى لهذه المؤسسات التعليمية، فقد أسس كثيرًا من المحاضر وتفرع من محضرة شنقيط عدد كبير من المحاضر، الشيء الذي جعلها هي العاصمة الثقافية للبلاد، ولهذا فقد غطت شهرتها كثيرًا من المدن العلمية، ولم يُطلق على هذه المؤسسات التعليمية (محضرة) إلا في القرن السادس الهجري[1].

وقد أطلق اسم المحضرة وسميت بهذا الاسم؛ لأنه مشتق من الحضور لإلقاء المحاضرات.

يقول الدكتور محمد المختار بن أباه: «من الصعب على من لم ير المحاضر أن يتصورها، ذلك أن البداوة تقترن في الذهن بالجهل، فالثقافة جزء من الحضارة، ومراكز العلم والتدريس تقترن غالبًا بالمعاهد والجماعات المشيدة التي اتصلت شهرتها بشهرة المدن التي

(١) شعراء موريتانيا (ص٣٣٦) لمحمد يوسف مقلد.



تحتضنها.. غير أن المحضرة فريدة من نوعها؛ إذ هي بعض أحياء البدو الذين يتتبعون المراعي متنقلين، تصادف شيخًا كسائر البداة متقشفًا في ملبسه، ومظهره، ولا يمتاز بشيء عن سكان الحي سوى أن ترى أمام بيته مجموعة من الشبان يقل عددهم أو يكثر حسب الأزمنة، تسكن تحت شجرة، وفي أعرشة من الخشب، تعيد بناءها كلما ارتحل آل الشيخ»[(١)].

قال العلامة خليل النحوي: المحضرة جامعة شعبية تستقبل كل من يرد عليها من جميع المستويات الثقافية، كما تستقبل العالم فتحدد له معارفه وتوسعها وتعمقها، ويرتادها الطفل والشيخ والمرأة، والفقير والموسر، تبذل لكل طالب ما يريد من ضروب المعرفة حسب مستواه الثقافي والعلمي وطاقة استيعابه.

وهي لا تسد أبوابها، وإن عطلت الدراسة أيامًا معدودات، بل تستمر في العطاء على مدار السنين، وهي لا تردُّ طالبًا لعدم وجود مقاعد شاغرة، ولا تغلق أبوابها لقلة عدد الطلاب المنتسبين، فلا حد أدنى ولا حد أعلى للعدد الذي يقوم به نظام المحضرة، بل ينقص العدد أو يزيد تبعًا للشيخ ومدى تفرغه، ويختلف باختلاف الفترات. وليس للطلبة سجل جامع يضبط أسماءهم ويحصر أعدادهم، لكن

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا (ص٢٣-٢٤) للدكتور محمد المختار بن أباه.



هناك مؤشرات دالة تستنتج منها أعداد الطلبة ولو على نحو تقريبي. من هذه المؤشرات جدول استعمال الزمن عند شيخ المحضرة، فكلما كثر عدد الطلبة، اضطر عميد الجامعة البدوية لصرف وقت أطول في تعليمهم، وهي تقدم للطلاب معارف موسوعية في مختلف فنون المعرفة الموروثة وهي:

القـرآن: حفظه ورسمه، وتجويده وتفسيره وبقية علومه، الحديث: متنه ومصطلحه ورجاله، العقيدة، الفقه: أصوله وقواعده وفروعه، السير: التاريخ والأنساب، الأخلاق والآداب والسلوك، اللغة والأدب: دواوين الشعر، والمتون النثرية، والنحو والصرف، والعروض والقوافي، والبلاغة والمنطق، الحساب والهندسة، والجغرافيا والفلك(١).

أهداف المحاضر:

تهدف المحاضر في تعليمها القرآن الكريم وعلومه، وتعليم الفقه وأصوله، وتعليم العقيدة إلى أهداف عظيمة وسامية.

منها: تعليم الدين الإسلامي عقيدة وشريعة وسلوكًا ومنهجًا.

ومنها: تكوين دعاة قادرين على تحمل مسئولية الدعوة.

ومنها: ترسيخ القيم الإسلامية وإرساء أسس الدين.

---

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص: ٩٢].



ومنها: تعهد العقيدة بالرعاية وصون التراث الإسلامي.

ولقد بذل رجال المحاضر وشيوخها جهدًا عظيمًا في نشر الإسلام إلى أدغال أفريقيا، وترسيخ العقيدة الإسلامية. ولقد أضاف المفكرون المعاصرون وأصحاب المحاضر من العلماء زيادات وتطورات أخرى على المحاضر اقتضتها ظروف العصر الحديث، ومواكبة التطور الحضاري دون أن ينسلخ من روح المحضرة القديمة.

نظام المحاضر:

إن نظام المحاضر يعتبر ظاهرة موريتانية متميزة، فنظام المحضرة يقوم على عالم معين يؤسس المحضرة، أو تتأسس عليه، فتُعرف به وتُنسب إليه، تعيش ما عاش، وتموت إذا مات، ولا تكاد تقوم بدونه.

وتتسم المحضرة بالحرية والمرونة، فلا ترد طالبًا لعدم وجود مقاعد، ولا تغلق أبوابها لقلة الطلاب، ولا حدّ أدنى ولا حدّ أقصى للطلاب.

ولا يتدخل الشيخ للطالب في اختيار المادة، لا كمًّا ولا نوعًا، ولا يراقب الشيخ غياب الطالب، بل الطالب رقيب نفسه، وهذا يدفع الطالب على الحرص والبحث والاهتمام.. كذلك لا يجمع الطالب



بين فنين، بل ينشغل بدراسة فن واحد يستمر فيه حتى يستكمله ويستوعبه، ثم ينتقل إلى سواه، وهكذا.

وبهذه الميزة كانت هذه المحاضر فريدة من نوعها، حيث اخترع الموريتانيون فيها نظامًا طوّعوا به العلم لظروف الصحراء القاسية، فجعلوا من المحاضر جامعات تسيح في الأرض لا مقر لها، ورغم ذلك فقد نالت إعجاب المعاصرين.

يقول الدكتور محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: «إن نظام المحاضر نظام يكاد يكون منقطع النظير، استنبط من واقع الحياة البدوية»[١].

أقسام المحاضر:

وتنقسم المحاضر إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: المحاضر القرآنية، ومهمتها تحفيظ القرآن للأطفال وتنتهي بإجازة متصلة السند بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفيها الأطفال ينقسمون إلى قسمين، قسم جيد الحفظ وهذا غالبًا يحفظ القرآن خلال عامين، والقسم الثاني من الأطفال يحفظ القرآن خلال أربع سنوات، وطريقة التحفيظ للأطفال يقوم الشيخ أولًا بكتابة الأحرف الأبجدية على اللوح الخشبي للأطفال الذين لا

(١) علماء ومفكرون عرفتهم (ص١٦٤) محمد المجذوب.



يجيدون القراءة والكتابة، ثم يقوم بتعليمهم القراءة والكتابة أولًا، ثم يقوم بإعطائهم الورد الذي سيقومون بحفظه، فيكتب لهم الآيات بالأحرف مُشكّلة بالفتح والضم والكسر حسب تشكيل الآية أو الآيات، ثم يكتب له الآيات التي سيقوم بحفظها على اللوح، ويقوم بالحفظ بهذه الطريقة، فإذا أتم حفظ كتاب الله، يقوم بكتابة القرآن كاملًا على اللوح بالخط العثماني، ثم يبدأ الشيخ بمتابعته بقراءة الورد اليومي في الصباح مائة مرة، وعند الظهر عشرين مرة، وعند المساء عشرين مرة، مع متابعة صارمة من الشيخ، حتى إنك تجد بعض الأطفال لا يُجيدون القراءة والكتابة ولكنهم يحفظون بالشكل والرسم والتلقي في البداية حتى يتعلم القراءة والكتابة، فإذا انتهى الطفل من حفظ كتاب الله، قام بدراسة أحكام التجويد، والحفظ من اللوح الخشبي وهي طريقة قديمة وهي منتشرة في كل دول أفريقيا، وهي في الحقيقة طريقة قوية وجيدة، حيث تجعل الطفل لا ينظر إلا إلى ما كتب له في اللوح، وتجعله لا يلتفت إلا إلى ما طلب منه حفظه، فيكون هذا أكثر تركيزًا وحفظًا، وهذه الطريقة كانت متبعة في مصر في القديم ولكنها اندثرت.

ولا ينتقل الطفل إلى دراسة العلوم الشرعية كدراسة وحفظ المتون وشروحها في الفقه وأصوله والعقيدة وغيرها حتى ينتهي من حفظ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.



القسم الثاني: محضرة الشيخ الواحد، لقد كان العالم الشنقيطي أول صفة من صفاته أن يكون حافظًا لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يكون ذاق مرارة الغربة في طلب العلم، ولذا كان العالم الشنقيطي يجمع بين تدريس القرآن وتدريس العلوم الشرعية.

فهو يُدرّس كل الفنون، وقد أوقف نشاطه على التدريس.

القسم الثالث: محضرة تجمع عدة شيوخ، كل شيخ يدرس فنًّا واحدًا.

القسم الرابع: محضرة تدرس فنًّا واحدًا، وهذه المحاضر منتشرة بكثرة في بلاد شنقيط في الحضر والبادية، حيث لا يوجد حيٌّ من الأحياء إلا وفيه شيخ نصَّب نفسه لتعليم الناس. والجدير بالذكر أن التعليم في المحاضر يتركز بصفة أساسية على حفظ وشرح المتون، وطلاب المحاضر لا يعدون العلم إلا ما حصل في الصدور ووعته الذاكرة متنًا ومعنى.

ومن الأمثلة التي تعبر عن هذا المعنى عندهم.

قولهم: القراية في الراس. ما هو في فاس. ولا هو في مكناس...

والمعنى: أن العلم المعتبر هو ما حفظ وليس في كثرة الذهاب إلى المدن الحضارية ومؤسسات التعليم فيها.



أدوات المعرفة والكتابة عند الشناقطة

الحياة المحضرية تقوم على مبدأ الاكتفاء الذاتي في الغالب الأعم، فهم يعتمدون في الكتابة على الألواح الخشبية والأقلام الخشبية والأحبار المحلية في الغالب الأعم؛ خاصة مع الأطفال.

اللوح والقلم:

اللوح والقلم هما مبدأ أمر العلم وعماد الحياة المحضرية عند الشناقطة، فهم يقولون إن الكتابة على اللوح تيمنًا باللوح المحفوظ والقلم، ومن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً** ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وفي حياة الطفل الشنقيطي يومان متميزان: يوم يحمل فيه اللوح يقولون: [فِد اللوح] أي: بدأ الدراسة، ويوم يأخذ فيه قلمه فيبدأ في كتابة درسه بنفسه بعد أن يكون قد تدرب على الخط باستخدام قلم جاف يتتبع به كتابة شيخه أو من ينقش له من الخطاطين الذين يرسمون نموذجًا يحاكيه الطفل في بدء أمره.

وغالبًا ما تتخذ الأقلام من الحلفاء(١) أو الثمام(٢) أو من جريد النخل وأعواده دقيقة مسطحة. يتخيرون لذلك من الأعواد ما

(١)، (٢) نوع من الشجر يصنعون منه الأقلام.



استقام واستوى وجف فنفدت رطوبته، وغالبًا ما يكون طوله دون الشبر (ما بين ١٢ أو ١٦ سم) ويقومون ببري رأس العود بموسي أو شفرة يأخذون من وسطه وأطرافه حتى إذا دق رأسه شقوه من النصف شقًا خفيفًا دقيقًا به يسهل إنسياب الحبر، وغالبًا ما تكون للطالب عدة أقلام.

تختلف الكتابة شكلًا وحجمًا باختلافها يتخير منها ما يشاء ويعوض منها ما انكسر أو ضاع من أقلامه. وهم يعنون بحفظ أقلامهم جيدًا، وربما اتخذوا لها أغلفة خاصة أو أودعوها في غلاف أو كتاب من كتبهم مجلد، ويكون ذلك بعد أن ينظفوها من آثار الحبر السائل ويصلح القلم للكتابة على اللوح والورق معًا، إلا أنهم يختارون للورق أقلامًا أكثر دقة تكون من الجريد.

أما اللوح: فيتخذونه من الأخشاب الصلبة الغليظة[(١)]، وهو عادة مستوى القاعدة مستطيل الشكل إلى رأسه ويكون أعلاه مقوسًا على شكل نصف دائري غالبًا، ومثلثًا هرميًا نادرًا.

ويتراوح طول اللوح ما بين ٣٠ سم إلى ٥٠ سم، أما عرضه فيتراوح ما بين ١٥ سم إلى ٢٣ سم. ويتخذ الطفل في الكتاب لوحًا

---

(١) أفضل الألواح تصنع من شجر يسمونه [آقلال] [تُنطق القاف جيمًا مصرية] وربما صنعوها من «تبشط» وهو شجر من البلوطيات.



من الحجم الصغير إلى أن يتقدم في دراسة القرآن فيتخذ كطالب المحضرة لوحًا كبير الحجم.

وهم يسطرون اللوح عند كل كتابة بإمرار قاعدة القلم عليه مرًا سريعًا متكررًا حتى تتميز السطور ويملس مستواها من اللوح، فبذلك تستقيم خطوط الكتابة، ويتجنبون انمياع الحبر في الخشب. ويتسع اللوح لأربعة دروس: اثنين في كل وجه. وقد يزيد على ذلك، بلا حد، خصوصًا بالنسبة للأطفال الذين يتعلمون تهجية الحروف. وكلما ملأ الطالب لوحه عاد فمحا الدرس الأول ليكتب درسًا جديدًا محله. ولا يكون ذلك إلا وقد أتقن حفظه، وتكون الدروس الأخرى باقية تمر عليها العين لتزداد رسوخًا في الذاكرة، إلى أن يتم محوها لكتابة درس آخر.

ويفضل الناس كتابة النصوص التي يدرسها الطالب على الألواح حتى وإن توافرت الأوراق، ذلك أنهم يعتقدون أن اللوح أبرك وأن النص المقروء في اللوح أيسر حفظًا وأرسخ في الذاكرة. ويستأنس القوم لذلك بقوله تعالى: ﴿**أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٤].

ولهذا ارتبط اللوح بالمحضرة ارتباطًا حميمًا حتى صار رمزها الخاص، وشغف به الشناقطة كثيرًا كما شغفوا بالمحضرة، وأكبروا شأنه كما أكبروا شأن العلم، وهو رمز الحياة المحضرية.



عم صباحًا أفلحت كل فـلاح

فيك يالوح لم أطع ألـف لاح

أنت يا لـوح صاحبي وأنيسي

وشفائي مـن غلتـي ولواحـي

فانتصاح امرئ يروم اعتياضي

طلب الوفر منك شر انتصاح

بك لا بالثـرا كلفـت قديـما

ومحيـاك لا وجـوه المـلاح

الحبـر:

صنع الشناقطة الحبر واستخدموه بألوان شتى، ولكنهم أكثر استخدامًا للحبر الأسود، فبه يكتبون جل ما يكتبون في الألواح وعلى الورق، وإنما يلجأون إلى الأحبار الأخرى في رسم الختمات على الألواح أو في المصاحف لتزيينها ولضبط رسم القرآن، أو في الكتب لإبراز عنوان أو علم من الأعلام، ولتمييز النص من الشرح خاصة، أو الأصل من الزيادة، والحبر الأحمر أكثر ما يستخدمون بعد الحبر الأسود، وهم يستخدمون الأحبار الملونة في كتابة المتن تمييزًا له عن الشرح، وفي الطرر خاصة، وقد اتخذوا الألوان أعلامًا على بعض المتون لالتزامهم إياها في كتابتها، وكانوا يصنعون هذه الأحبار غالبًا من المواد المحلية.

الحبر الأسود:

فهم يصنعون الحبر الأسود من صدأ الحديد والقرظ، وهو ثمرة [آمور] [الغضا] وورق [التمات] [السلم] والصمغ وقد نظم أحدهم المعادلة الكيميائية البسيطة في بيت رجز:

جزءان من قرظ وجزء من سواد

والرابع الكندر تم ذا المداد

والعادة أن تترك هذه الأخلاط تختمر في مرجل أو قطعة منه طيلة ليلتين أوثلاث حتى يسود الماء ويثخن. ويحرك كل صباح ومساء بعودٍ من الخشب، وإذا كان الحي متنقلًا في الصحارى ونحوها حيث لا توجد المياه، وإنما يعيش الناس باللبن ويتيممون لصلواتهم فإن المحبرة تحضر باللبن نفسه، ويعصرون من آسكاف [شجرة من الحمض] مادة سائلة يغسلون بها الألواح[١].

الحبر الأحمر:

فهم يحكون [الحمرة] وهي مادة ترابية حمراء في ماء وصمغ، وقد يعصرونه من نبتة يسمونها [أم الدم] تتخذ أحيانًا بديلًا للحناء في الزينة.

---

(١) هذه الصورة لم تعد قائمة الآن، فقد عصفت بها المتغيرات ولكن حدّثني بعض الأشياخ الذين تقدم بهم العمر، أنه أدرك الناس يمارسون هذا في حياتهم العلمية مستخدمين هذه الطريقة.



الحبر الأخضر:

فهم يصنعونه من أوراق عشب بدوي يسمونه [الشربة].

الحبر الأصفر:

فهم يعدون الحبر الأصفر من أوراق شجرة يُقال لها: [تالولاكت] أو [يرتمه] وهي نبات أصفر يستجلب من دولة السنغال.

الـورق:

لم يكن الورق مادة أساسية في حلقة الدراسة، فقد كان الطالب يكتب درسه على اللوح، ولكنهم يستعملون الورق لتدوين المتون، ولم يؤثر عن الشناقطة أنهم دونوا على الورق أو الرقاع أو العظام ونحو ذلك(١).

عُمر المحضرة:

تعيش المحضرة ما عاش شيخها، لكنها لا تموت إذا مات، وإنما تورث من بعده، يرثها أبناؤه وطلبته الذين تخرجوا على يده فَيُنْشِئُون محاضر غيرها لا محضرة واحدة، إلا أن المؤسسات الجديدة تحمل أسماء شيوخها الجدد، فتبدو وكأنها مؤسسات وليدة، وما هي في الواقع إلا استمرار لمحضرة الشيخ الذي قضى نحبه.

---

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص: ١٤٧، ١٤٩] لخليل النحوي.



وبديهي أن عمر محضرة الشيخ هو عمره العلمي الذي ينصرف فيه إلى بث العلم ونشره، لكن جل الشيوخ لا يتقاعدون حتى يدركهم الموت أو يحبسهم عن التدريس مرض عضال. ومنهم من ينتصب للتدريس في سن العشرين أو قبل الثلاثين، فإذا عمَّرَ عمّرَت المحضرة معه.

وبهذا المعنى تعيش المحضرة، فهناك محضرة عاشت أربعمائة سنة، وهناك محضرة عاشت سبعين سنة، وهناك محضرة تعيش أربعين سنة وهكذا.

مدة الدراسة:

يلتحق الطفل أو الفتاة بالمحضرة في سن مبكرة تتحدد غالبًا في ضوء انتهائه من حفظ القرآن ودراسته لبعض المتون المبسطة، وباستطاعة الطفل أن يبدأ دراسته المحضرية في حيه قبل العاشرة، إذ من الأطفال من يكمل حفظ القرآن في السابعة، فإن تأخر ففي الثانية عشرة، وما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يكون الطالب مؤهلًا للخروج من حي أهله والاغتراب لطلب العلم.

وباستطاعة طالب العلم في أي مرحلة من مراحل العمر أن يلتحق بالمحضرة لا يمنعه من التعلم حداثة سن ولا شيخوخة. وله أن يمكث في رحاب المحضرة ما شاء من السنين حتى وإن أكمل



دراسة المتون، فمن الطلبة معمرون شعارهم [اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد] ألفوا المحضرة وتعشقوها فهم مقيمون بها السنين يعيدون دراسة ما قرأوه ويسمعون دروس الآخرين ويكررون لهم ويستنسخون المخطوطات ويقيدون النوادر والشواهد، ويستأنسون بجو المحضرة، فلا يطمئنون خارجها.

وبالمقابل للطالب أن ينسحب من المحضرة متى شاء، إما إلى محضرة أخرى أو لمباشرة شؤونه وتدبير أموره، فالمحضرة خيمة مفتوحة تدخل في جميع الأوقات من جميع الجهات، ولداخلها أن يمكث ما يشاء ويخرج متى شاء.

وهكذا تتدرج فترة الدراسة في محضرة من الدقيقة صعدًا إلى السنة إلى سنين تستغرق العمر. ومن الانتساب الخاطف انتساب الطالب إلى المحضرة يريدها لحل إشكال عرض له وينصرف دون أن يمكث.

ذكر عن حبيب الله بن القاضي أحد شيوخ محضرة يُقال لها «الكحلاء» أنه كان وهو طالب يدرس مختصر خليل، بلغ فيه قوله في باب اليمين: وخصصت نية الحالف وقيدت فأشكل عليه المعنى فشد رحله يبحث عن محضرة المختار بن بونة المتنقلة. ووصل المحضرة وقت المقيل فأتى شيخها وسأله. وأجابه المختار فشفى غليله. وعاد الطالب من حينه. ثم افتقده الشيخ فسأل عنه فلما أخبروه الخبر قال:



«سرق ابن الإجملية[١] منطقي لو علمت أنه هو لم أدعه حتى يدخل بقرته». يعني أنه لو عرفه لألزمه الانتساب إلى المحضرة انتساب المقيم الذي يحمل معه زاده.

ومن المقيمين من ينقطع عن أهله السنين تلو السنين لا شغل له إلا الدراسة، فقد مكث محمد بن حنبل سبع سنين منقطعًا لطلب اللغة لم يزر فيها أهله على قربهم منه[٢].

وسافر الشيخ سيدي بن المختار إلى الشيخ سيد المختار الكنتي مسيرة شهر، ومكث معه ومع ولده من بعده ستة عشر عامًا أو عشرين عامًا حسب رواية الوسيط[٣].

ومكث أحمد بن العاقل نحو عشر سنين عاكفًا على الدراسة لم يقف على البئر[٤].

[لم يقف على البئر] هذا مضرب للمثل عند البدو، لأن شأن البدوي أن يأتي البئر مرة في اليوم أو أكثر يستعذب الماء لذويه، أو يسقي ماشيته أو يتفقدها أو يعين غيره، أو يشهد الخبر، ولم يقف على البئر دليل على الانقطاع ولزم الطالب أحمد بن اطوير الجنة محضرة

(١) «الإجملية» نسبة إلى قبيلة.
(٢) الوسيط [ص: ٦١١].
(٣) الوسيط [ص: ٢٤١] والرواية الأولى أصح على ما يذكره أهل الشأن والبلاد.
(٤) الوسيط [ص: ٢٤١].



سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي طيلة عشرين سنة. وهي مدة إقامة ابن القاسم مع الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومكث أحمد بن محمد عينين بن أحمد الهادي المتوني التمدكي في محضرة تسمى الكحلاء نيفًا وعشرين سنة، أجازه في ختامها شيخها محمد محمود بن حبيب الله في القضاء(١).

ومكث عبد الله بن الحاج أربعين سنة يرتاد طلب العلم لم يشبع منه يأخذ عن من وجد عنده زيادة(٢).

مواقيت الدراسة:

غالب الشأن أن تنتظم الدراسة المحضرية خلال النهار فتبدأ ضحى بعد أن يكون الناس قد فرغوا من صلاتهم وإفطارهم وأخرجوا ماشيتهم إلى مراعيها. والغالب أن تتوقف ساعة القيلولة والغداء، ثم تستأنف الدراسة إلى غروب الشمس، وليس من تقاليد شيوخ المحاضر أن يحجزوا وقتًا خاصًا لطالب معين أو لدراسة مادة معينة، بل يجلسون لتدريس الطلبة حسب ترتيب حضورهم أو ترتيب اختياري آخر يرتضونه.

(١) يحيى بن البراء [ص: ٦٢].
(٢) الوسيط [ص: ٣٨].



ذلك هو شأن محاضر البادية خاصة، إلا أن تكتظ بالطلبة فيضطر الشيخ إلى تنظيم استعمال الزمن أو إلى صرف المزيد من وقت راحته ليلًا ونهارًا على الطلبة.

أما محاضر المدن فهي عادة أكثر عناية بتنظيم الدراسة وضبط مواقيتها، وفي هذا الإطار تندرج تقاليد المساجد وهي مراكز علمية في المدن العتيقة.

فهناك محاضر يقرءون الحديث بين الظهر والعصر، وهناك محاضر يدرسون علوم القرآن ما بين العشاءين، وهناك يدرّس الفقه من الصباح حتى الظهر، وما بين الظهر والعصر اللغة وعلومها، وما بين العشاءين للنساء.

وهناك من مشايخ المحاضر من يدرس لطلبته في الثلث الأخير من الليل، ثم يشتغل بأوراده بعد صلاة الصبح إلى أن يصلي الضحى، ثم يجلس للتعليم إلى قرب الزوال فينام نومًا خفيفًا، ثم يشتغل بالتعليم ما بين الظهرين وما بين العصر والمغرب، هكذا عندهم مواقيت التدريس.

العطل المحضرية:

ليس للمحضرة موسم دراسي محدد، بل الزمن كله وقت للدراسة ليله ونهاره، باستثناء العطل الدينية المعهودة وهي العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى.





المبادئ المحضرية:

إن الطالب يتمتع بحرية واسعة في ممارسة الدراسة داخل المحضرة، بدءًا من اختيار المتن والحصة الدراسية وغير ذلك، ومن حقوق الطالب التي يمارسها دراسة متنين أو أكثر في آن واحد، يقرأ من كل متن حصة في اليوم، وله أن يكثف مجهود التحصيل ليفرغ من المتن بسرعة، وله أن ينتقل منه قبل أن يكمله إلى غيره، ولكن هناك طائفة من الآداب تمثل مبادئ تربوية ينصح بها الشيوخ الطلبة الذين يحرصون على الإتقان.

وهي:

(١) التدرج:

يدعو هذا المبدأ الطالب إلى التزام التسلسل الطبيعي في دراسته فيبدأ بالمتون الصغرى المبسطة، وينتقل منها إلى فئة وسطى قبل أن يدرس المتون الكبرى، جامعية المستوى.

(٢) استيفاء المتن:

غالبًا ما ينصح الشيخ الطالب بدراسة متن واحد، يفرغ نفسه له، وينفرد به فلا يجمع إليه غيره، ولا ينتقل عنه حتى يستوفي دراسته كله، لأن الشيخ يرى أن ترادف الفنون يحد من قدرة الطالب على الاستيعاب.





(٣) تقليل الحصة الدراسية:

للطالب الكلمة الفصل غالبًا في تحديد مقدار الحصة الدراسية، في ضوء قدرته على الحفظ والاستيعاب، وللمحضرة آدابٌ وأعرافٌ تندب بمقتضاها الطلبة إلى اختيار حصص دراسية قصيرة يتمكنون من استيعابها بيسر.

(٤) تندب المحضرة الطالب إلى أن يعيد دراسة المتن، خاصة المتون الكبرى، بعد دراسته الأولى مرة ثانية أو مرات، ليزداد حفظًا له واستيعابًا، أول من يتجه إليهم هذا الخطاب التربوي أولئك الذين درسوا المتن دراسة مبكرة.







أسباب ذيوع العلم
في بلاد شنقيط

لا شك أن بلاد شنقيط أخذت شهرة واسعة في الاهتمام بالعلم، حتى إنها أصبحت قبلة كثير من طلبة العلم من بلاد المغرب العربي ودول أفريقيا، وغيرها من بلدان العالم الأوربي، والسبب في ذيوع العلم وكثرة العلماء في بلاد شنقيط يرجع إلى اهتمام هذا القطر بالعلم وتعليمه من بداية القرن الرابع الهجري، عندما سافر أبو بكر بن عمر -رحمة الله عليه- إلى بلاد الحرمين لأداء فريضة الحج، وأمَّر على بلاد شنقيط العالم المجاهد يوسف بن تاشفين، وأثناء عودته اصطحب معه من بلاد المغرب كوكبة من العلماء والمشايخ الأجلاء، وهم: الإمام الحضرمي، وعبد الرحمن الركاز، والزينبي، والإمام إبراهيم الأموي والذي عُرف بعد ذلك بإبراهيم مجلس العلوم، فكان لتواجد هؤلاء العلماء الأجلاء المجاهدين وما سبقهم من أسس إسلامية وثقافية وطد أركانها الفقيه المجاهد عبد الله بن ياسين الدور الفعال في انطلاق الإشعاع الإسلامي القائم على أسس المعرفة والتنظير العلمي، مما أشاع ظاهرة التمدرس في مجموعة المحاضر، ودعم ذلك إصلاح آخر أضافه أبو بكر بن عمر



حيث أشاع فيه ظاهرة التخصص التي فرضها، وهي تقسيم المحلة، وكانت تضم آلاف الخيام، تقسيمهم إلى محاربين مجاهدين، وعلماء ينشغلون بتدريس العلوم الشرعية، وصناع وحرفيين، ومن هنا كان الاهتمام بتعلم العلوم الشرعية بقوة ومتانة ورسوخ.

وبمجهود هؤلاء العلماء أخذت المعرفة والثقافة الإسلامية تنتشر في بلاد شنقيط، حيث ظهرت الثقافة المحضرية المدنية بجانب الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، وهكذا تعززت الثقافة العربية الإسلامية في بلاد شنقيط.

ونقلها أحفادهم إلى أدغال أفريقيا حتى اليوم، وازدهر هذا التبادل الثقافي العلمي بين مدن البلاد وباقي أقطار الوطن العربي الإسلامي، فبرزت شهرة بلاد شنقيط، وبرز علماء فطاحلة شناقطة في علوم شتى، وألفت عشرات الآلاف من الكتب، وأنشئت مئات المكتبات الكبيرة والصغيرة المستقرة في القرى والمتنقلة، وتطير شهرة شنقيط والعلماء الشناقطة في آفاق العالم العربي والإسلامي حتى أصبحت بلاد الحرمين الشريفين ودول الخليج تتلقف العلماء الشناقطة للتدريس في جامعاتهم ومعاهدهم في العهد القديم والمعاصر.





وقد جلستُ أثناء رحلتي مع كثير من المشايخ والعلماء الشناقطة الذين تتلمذ على أيديهم كثير من العلماء، لأنهم في الحقيقة تشبعوا من المعرفة الإسلامية.







أسباب قوة الحفظ عند الشناقطة

لا شك أن قوة الحفظ عند كل إنسان مهما كان جنسه مرتبطة بالقدرة الكامنة في الدماغ، فالحفظ هو قدرة موجودة وكامنة في رأس الإنسان، فإذا عمل هذا الإنسان على تفعيلها وتنشيطها صارت تتمدد، فبحسب التدريب والغاية يكون حفظ الإنسان، وكذلك إذا كان هناك نوع من التسابق والتحفيز اندفعت قوة الحفظ أكثر وأكثر، وقد يتدخل العامل الجيني والوراثي فيكون أيضًا سببًا لقوة الحفظ.

ولقد سألت كثيرًا من علماء بلاد شنقيط عن أسباب قوة الحفظ عندهم، فكانت الإجابة هي نفس الرؤية التي ذكرتها، فالحفظ يكون بالدربة وتفعيل الطاقة الكامنة وتنشيطها، وصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «**إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم**»، وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وهو صاحب محضرة بالبادية عندما سألته عن أسباب قوة الحفظ عند الشناقطة، قال: إن الشناقطة اعتمدوا على الحفظ منذ القدم بسبب عدم وجود أدوات الكتابة من ورق وحبر، فكان هذا سببًا عظيمًا في اعتمادهم على الحفظ، فأصبحت هذه عادة وأمرًا طبيعيًّا عندهم، حتى إنك تجد من يحفظ



الموطأ (موطأ مالك) ويحفظ آلاف الأبيات الشعرية، أو قد يُنشئُ لك بعض الأبيات إذا طلبت منه ذلك، فقلت له نعم فأنا والله ما استوقفت طفلًا صغيرًا كان أو كبيرًا في الشارع إلا وسألته، يا بني ما اسمك؟ فيقول: فلان، فأقول له هل تحفظ شيئًا من القرآن؟ فيقول: نعم، كذا وكذا، فأقول له اقرأ، فيندفع يقرأ حتى أقول له: حسبك، وقد فعلت هذا مرات ومرات، وما سألت طفلًا عن حفظه وخاب ظني.

قال العلامة خليل النحوي:

ابتدع المجتمع المحضري نظرية تقول: إن دماغ الإنسان يتكون من كمية هائلة من الثقوب، التي تنسد وتنفتح، تبعًا لمستوى البلادة أو الذكاء عند الإنسان، فالذي يدرس كل يوم، ويستفيد كل يوم جديدًا تظل ثقوب دماغه تتفتح، فيزداد ذكاؤه وفهمه بازدياد علمه، أما إذا توقف عن التعلم فإن هذه الثقوب تأخذ في الانسداد تدريجيًا حتى يعود المرء إلى الدرك الأسفل من البلادة. وهي نظرية تربوية ذات مغزى واضح، لكن لها مصداقيتها أيضًا من الناحية الفيزيقية في كثرة عدد خلايا الدماغ؛ وهي عشرة مليارات خلية، كما أنها صادقة فيما تشير إليه من أثر الدربة والتجربة في تطوير الموهبة.

والنظريات العلمية اليوم تقول كلامًا شبيهًا بكلام المحضرة، فهي تعتبر أن كل إنسان يولد بطاقة وافرة من الذكاء، لكن التقصير في استعمالها وعدم اتباع المنهج السليم لذلك ينزل بالطاقة الفعلية المستعملة إلى أقل من عشرة بالمائة عند أغلب الناس.

والشناقطة يراعون هذه النظرية ويحرصون على تعلم الجديد في كل يوم، وقد سموا تعطيل الدراسة [غبا] يقولون: فلان [غب] إذا لم يكتب درسًا جديدًا، ولو كرر دروسه السابقة، وفي ذلك إحالة إلى مدلول الكلمة في حياة البادية، يقولون إن الماشية [غبت] إذا لم تشرب يومها، فكأن الذي لا يدرس ظمأ لا يرد الماء، وهكذا العلم عند هؤلاء(١).

وقال لي: الشيخ محفوظ ولد الوالد الشنقيطي: كان الشناقطة في القديم بعضهم يجاهد في سبيل الله، والبعض الآخر منشغلًا بالعلم وحفظه وفهمه وتدريسه، حتى أصبحوا إلى اليوم لا يعدون العالم عالمًا ولا الشيخ شيخًا إلا إذا كان حافظًا، فلا يُعدون العلم إلا ما حصل في الصدور، ووعته الذاكرة حفظًا ومعنى.

وقد ذكر لي بعض المشايخ قصة عجيبة وأخبرني أنها حقيقية وأصبحت مثلًا إلى اليوم:

---

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص: ٨٧ – ٨٨] لخليل النحوي.



قال: كان هناك رجل يعمل برعاية الأغنام في البادية، يُقال له: (ولد أن جكو) وبينما هو يقوم برعاية غنمه سمع إحدى النساء تضرب ولدها وتحقره وتعيره وتقول له: أنت أجهل من (ابن ولد جكو) فسمعها الراعي، ولام نفسه على أنه يضرب به المثل في الجهل، فبدأ بحفظ كتاب الله، ولم يكن عنده لوح يكتب عليه، فكان يكتب على عصاه التي يرعى بها الأغنام، الورد القرآني الذي سيحفظه، حتى أتم حفظ كتاب الله بهذه الطريقة، فأصبح نموذجًا ومثلًا يُقتدى به في الهمة والحفظ.

فالحفظ يحتاج إلى المراس والدربة، وتدريب النفس وترويضها على فهم ما تحفظه. حتى إن هناك بيتين من الشعر باللهجة الحسانية -وهي لهجة عامية مثل العامية المصرية ولكنها أقرب إلى اللغة العربية- وأنا ما حفظت من الشعر الشنقيطي إلا هذين البيتين:

كَـوَّمْ نَـصَّـكْ يَـلِّ يَـرْعَـاك
وَارْعَ مِـنْ نَـصْ إِبْـلاَ مَـعْـنَ
والـنَّـصْ إِلَا مَـا تَـمْ اِمْـعَـاكَ
يِـتَـافَـكْ هَـوَ والمَـعْـنَـى

ومعنى قوله: يل يرعاك: دعاء بأن يجعله الله في رعايته.



ومعنى قوله: والنص إلى ما تم امعاك يتفق هو والمعنى: أي أن من نسي النص فإنه سوف ينسى المعنى كذلك. وأنه ينبغي على طالب العلم أن يهتم بحفظ العلوم حفظًا جيدًا متقنًا، كما أنه ينبغي أن يفهم العلوم فهمًا صحيحًا. لأن النص إذا ضاع منك حفظه حتمًا سيضيع منك فهمه، وهذه الدربة والتمرس في حفظ القرآن والعلوم الشرعية، وحفظها حفظًا متينًا متقنًا يجعل جسد الإنسان يتفاعل مع هذه العلوم في حياته وفي أزماته وعند احتضاره، فتجد منه ربما الكرامات والانفعالات الجسدية الغير طبيعية، والتي كان سببها التفاعل الوجداني والعقلي والحسي والروحي بين الإنسان في يقظته وبين هذه العلوم. وهذا قد تحقق لبعض السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وما زال فضل الله باقيًا إلى قيام الساعة.

ذكر لي بعض المشايخ الأماجد قائلًا:

إن قريبة له أدخلوها غرفة العمليات لإجراء عملية جراحية، وقام دكتور التخدير بتخديرها، وأثناء إجراء العملية وهي مخدرة تخديرًا كليًّا، سمعها الجراح تقرأ القرآن قراءة صحيحة وواضحة فتعجب، وسأل عنها ابنها، وكيف تعيش وتقضي حياتها اليومية، فأجاب الابن قائلًا: إن هذا التوقيت الذي أُجريت فيه العملية الجراحية لأمي، هو نفس توقيت الورد القرآني لها.



حدث انسجام بين الجوارح وبين القرآن، بين العقل والقلب وتلاوة القرآن في وقت اليقظة، فأصبح عادة حتى تحقق هذا الانسجام في وقت غياب العقل والجسد مُخدّر أثناء إجراء العملية الجراحية.



نوادر الحفظ والنبوغ عند الشناقطة

لقد خرجت المحضرة أجيالًا من العلماء الحفاظ الذين يحملون العلم معهم في الحل والترحال، صدورهم خزائن لكل ما طالعوه أو درسوه، كانوا يستأنسون بقول الله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: الآية ١٠] وكان شعارهم بيتين، طالما تمثلوا بهما، يُنسبان للإمام الشافعي:

علمي معي أينما يممت أحمله
قلبي وعاء له لا جوف صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق كان العلم في السوق

ويناقش مصطفى صادق الرافعي أسرار هذه الملكة عند العرب، فيرفض رأي الباحثين الذين يردون حفظ العرب إلى كونهم قومًا بادين، بعثتهم قلة مرافق الحياة التي بأيديهم على التوسع في الحفظ والمران عليه، فذلك عند الرافعي «رأي لا يستقيم على النظر ولا يصح عند التحقيق لأن أقوامًا غير العرب قد تبدوا في عصور مختلفة، ولم يؤثر عنهم من نوادر الحفظ وفنونه بعض ما أُثر عن هؤلاء»..

«والصحيح أن العرب قومٌ معنويون ولم يجر من الأحكام على أمة من الأمم ما جرى عليهم، ولهذا كان لابد لهم في أصل الخلقة



من الحوافظ القوية التي ترتبط مآثر تلك النفوس ارتباطًا وإلا اختل تركيبهم الطبيعي.

«وإذا أردت أن تعرف مصداق ذلك فاعتبر ما اتسعوا فيه من المحفوظ، فإنك لست واجده إلا في المعاني النفسية؛ مما يرجع إلى التفاخر والتفاضل بالأحساب والأنساب، والتعاير بالمثالب والتنابز بالألقاب، ولو أن الكتابة كانت فاشية فيهم ما عدلوا إليها ولا استغنوا بها عن الحفظ؛ لأن سبيل تلك المعاني الطبيعية أن تجيء من أداة طبيعية أيضًا، حتى تكون عند الخاطر إذا خطر، والهاجس إذا بدر وليس لذلك غير اللسان»، ويلخص مصطفى صادق الرافعي نظريته: «كان العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظًا، وأتمهم حافظة، وكانت الكتابة غير طبيعية في نظامهم الاجتماعي»[(١)].

فالحفظ والرواية سمة مميزة للثقافة العربية التي اشترك مع العرب في نقلها حفاظ بارزون من أمم أخرى أسلموا فتعربوا، وكانوا مجلين، مثل الإمام البخاري - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - الذي كان نادرة في الحفظ.

ذكر الرافعي: أن علماء بغداد أرادوا امتحان الإمام البخاري فعمدوا إلى مائة حديث قلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا لإسنادٍ آخر وإسناد هذا لمتن آخر واقتسموها: كل عشرة أحاديث يلقيها أحدهم. فلما جلسوا إليه قام أحدهم وسأله عن حديث من العشرة التي

(١) تاريخ آداب اللغة العربية [١/ ٢٧١] لمصطفى صادق الرافعي.



حفظها، فقال: لا أعرفه واستمروا يسألونه وهو يقول لا أعرف، حتى أتوا على المائة. فلما فرغوا التفت إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا وكذا وصوابه كذا، وحديثك الثاني قلت فيه كذا وصوابه كذا، واستمر حتى أتى على تمام العشرة، وفعل بالآخرين مثل ذلك ما يخطئ في ترتيب حديث على غير ما أُلقي عليه ولا في نسبة حديث إلى غير صاحبه الذي ألقاه وهو في كل ذلك يرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه[1] بمثل هذه الحافظة وأرفع منها، امتاز الشناقطة، واختطف علماؤهم المتجولون الأضواء. فبقوة الذاكرة وغزارة العلم وحضور البديهة بهر ابن التلاميذ، ومحمد أمين فال الخير، وأحمد بن الأمين الطلبة والعلماء على حد سواء في المشرق، وحسبك أن أحمد بن الأمين الشنقيطي نزيل القاهرة قد دوَّن كتابه الوسيط في تراجم أدباء شنقيط إملاءً من ذاكرته، وفيه نحو أربعة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر الشنقيطي.

وكانت قبيلة تجكانت بها ثلاثمائة فتاة تحفظ موطأ مالك - رَحِمَهُ اللَّهُ -، بل كان الغلمان قبل البلوغ يحفظون المدونة ودواوين الشعر الجاهلي وألفية ابن مالك، ومختصر ابن إسحاق.

وقال الخليل النحوي أن العلامة محمد سالم بن عبد الودود، أن أمه مريم بنت اللاعمة كانت تحفظ القاموس. وقد استوعبته بطريقة

(١) تاريخ آداب اللغة العربية [١/ ٢٩٤] للرافعي.



غريبة، حيث كان والدها يرسلها من حين إلى آخر إلى خيمة أحد علماء الحي تنظر له معنى كلمة في القاموس فتعود، وقد حفظت المادة كلها[(١)]. فالبيئة مؤثرة، وهذه المرأة حفظت بالسماع لأن البيئة المحيطة بها صالحة، فقد يكون الجد عالمًا، والأب عالمًا، والأخ عالمًا فلابد أن تتأثر لأنها في بيت علم.

وكـــن بـــرمًـــا مـلـيـــح الـشـكـل
يحـكـي بـنـظـمـتـه المـلـيـحـة عندليبا
كـــذا مـــن جـــاور الـعـلـمـاء طفلا
يـكـــون إذا نـشـــأ شـيـخًـا أديـبـا

وكان محمد محمود بن أحمديه يحفظ مقامات الحريري والمستطرف وكامل المبرد والوسيط في تراجم أدباء شنقيط، وديوان المتنبي، وديوان أبي تمام، وديوان البحتري، هذا في الأدب وحده وخارج المنهج الدراسي التقليدي[(٢)].

وكان الشيخ سيدي المختار بن الشيخ أحمد بن سليمان المتوفي سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وتسعين يحفظ الإتقان في علوم القرآن، وفتح الباري على صحيح البخاري[(٣)] هذا بخلاف المتون التي تدرس بالمحاضر.

---

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص: ٢٣٠] لخليل النحوي.
(٢) غرض المديح من ديوان محمد محمود بن أحمذيه [ص: ١٧] محمد محمود سالم.
(٣) المصدر السابق [ص: ٦٤].



وذكر عن سيدي محمد بن سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم أنه قال: «إن علوم المذاهب الأربعة لو رمى بجميع مراجعها في البحر لتمكنت أنا وتلميذي ألفغ الديماني من إعادتها دون زيادة أو نقص، هو يحمل المتون وأنا أمسك الشروح»(١).

وحين ألَّفَ سيدي محمد بن حبت كتابه [المواهب النحوية على الخلاصة والألفاظ البونية].

أخذه ابنه الشيخ وكان كثير الترحال ينقل معه كتبه على ظهور الإبل، فضل جمل كان يحمل جزءًا من مكتبة الشيخ، وفيه كتاب والده، وأعياهم البحث عنه فلم يجدوه فجاء الابن إلى والده وقص عليه ما حدث قال الوالد: لقد ضيعت جزءًا كبيرًا من عمري، ثم إن الشيخ، وكان قد قرأ كتاب والده من قبل، لخص الكتاب من ذاكرته وقدمه إلى والده فلم ينقص منه شيئًا، ووجد أن الشبل من الأسد. وأقبل الوالد بدوره على إعادة كتابته وتصنيفه فنشره كاملًا، فأنتجت الذاكرة الشنقيطية كتابين اثنين بسبب فقدان كتاب واحد(٢).

وعمومًا فإن الشناقطة مضرب المثل في الحفظ، وقد رد مصطفى السباعي في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) على المتقولين في مرويات أبي هريرة المستغربين كثرة أحاديثه بأن الحفظ سجية عند

---

(١) سواطع الجمان في ذكر المعاني والأوزان [ص: ٣٠] المصطفى بن محمد.
(٢) نماذج من تاريخ أسرة آل حبت [ص/ ٥٥] سيدي محمد بن نباهي.



العرب. وضرب مثلًا لذلك بالشناقطة، وذكر منهم المجيدري بن حبيب[1] وأحمد بن الأمين.

وقد حدثني الشيخ محمد المختار ولدي الداة أن أمه أخبرته أن ابن عمه كان يأخذ الكتاب في الصباح ويذهب به إلى كهف، أو تحت شجرة ويرجع آخر النهار وقد حفظه كله، وإذا سألوه عن أيَّة كلمة فيمليها عليهم من حفظه من قراءة واحدة.

وقال لي إن طلبة المحاضر في الريف والبادية يخرجون بالليل ويشعلون النار على الخشب ويحفظون متونهم وأورادهم على ضوء النار، حتى وقال لي الأستاذ محمد لولي إدريس أنه كان يخرج معهم وهو طفل صغير ليحفظ ورده ولوحه قبل الفجر، فخشيت عليه عمته، وأشفقت عليه فكانت تربط قدميه بقدميها بحبل في الليل بعد نومه حتى لا يتفلت ويخرج دون أن تشعر.

وكان بعضهم لا يُلقي لنفسه بالاً، تأتيه أخته بطعام الصباح وهو يقرأ ويُطالع، ثم تأتيه بطعام الغذاء فتجد طعام الصباح ما زال مطروحًا لم يقربه ولم يأكله لشدة انشغاله بالعلم.

وما زال الشناقطة عندهم من التنافس في الخير والبذل والمعرفة وطلب العلم والصبر عليه، والإنفاق من أجله ما يضرب به المثل، حتى إنك تجد بعض القبائل تستجلب بعض الشيوخ وتستضيفهم

(١) انظر نبذة عن حياته [ص: ٢٢].



بالسنوات الطوال لتعليم أولادهم العلوم الشرعية كالقرآن والعقيدة والفقه والأصول والشعر، فيأتون له بخيمة، وكل ما يحتاج إليه من طعام وشراب، ولا ينشغل هو إلا بالذكر والاستغفار وتعليم الناس هذا عمله فقط وإذا مرت قافلة تجارية عليهم أول ما يأتون به من ثياب ثياب الشيخ وكسوة الشيخ، وزرع الشيخ الذي يحتاج إليه، وأول مزادة يوضع بها الماء مزادة الشيخ.

وذكر لي الشيخ محمد الأمين ولد الداة قصة عجيبة أن رجلًا سألته زوجته سؤالًا في السيرة النبوية الشريفة فلم يعرف ولم يجبها، فذهب يطلب العلم في مصر وكابد عناء الطريق، حتى وجد بغيته في مكتبة الجامع الأزهر، ففيها خزانة الكتب من كل الفنون، والتقى بسلطان مصر آنذاك وأعطى له مفاتيح المكتبة الخاصة بالجامع الأزهر[١].

وقال له: اقرأ ما شئت فمكث فيها سنة وحفظها كلها عن ظهر قلب، وقال لعلماء الأزهر: أنا قرأت ما في المكتبة من كتب حتى إني حفظتها فلم يصدقوه وقالوا له لم تحفظ شيئًا.

فقال لهم: اجعلوا لي اختبارًا وامتحانًا،

قالوا: كيف؟

قال: احضروا لي عشرة رجال ويذكرون لي أسماءهم وأسماء عشرة من آبائهم وأجدادهم وسوف أحفظ أسماءهم وأسماء

---

(١) انظر نبذة عن حياته [ص: ٢٢].



أجدادهم وأذكرهم لهم من مرة واحدة وأذكر لهم أسماء عشرة من آبائي وأجدادي مرة واحدة ثم أختبرهم فأقول لهم اذكروا لي أسماء العشرة من آبائي وأجدادي الذي ذكرتهم لكم، وسوف لا يحفظونها، وأذكر لكم أسماء آباء وأجداد العشرة رجال منكم، فاجتمعوا في بيت السلطان، فلم يستطع واحدٌ من العشرة رجال ذكر أسماء آباء وأجداد الشيخ المجدري، وعجزوا عجزًا كليًا، ثم سألوه فعد لهم أسماء آبائهم وأجدادهم وهو ما يعادل مائة اسم يقول لكل واحد منهم أنت اسمك فلان بن فلان وعد لهم أسماء آبائهم وأجدادهم؛ فعجبوا من ذلك عجبًا شديدًا، وأعطاه السلطان كثيرًا من العطايا والهدايا وكان مضرب المثل في قوة الحفظ.







طلبة العلم في شنقيط

شنقيط: الاسم الأكثر ذيوعًا في البلاد العربية والإسلامية قديمًا وحديثًا. فالشناقطة في تجاراتهم نقلوا العلم والدين حيث حلوا، سواء في رحلاتهم التجارية إلى مناطق الشمال أو الجنوب، وكذلك في رحلاتهم إلى البلاد المقدسة. فقد أفادوا واستفادوا وأخذوا وأعطوا، فطوال هذه المرحلة الزمنية، ازدهرت هذه المدينة ازدهارًا ملفتًا لنظر الباحثين والمهتمين بالنشاط الفكري العربي، والنشاط. العلمي.

فقد اكتسبت هذه المدينة إشعاعًا روحيًّا فائقًا، من أجله عُدّت مدينة الإسلام السابعة، بفضل الله أولًا، ثم بفضل ما تجمع فيها من مفكرين وعلماء وحفاظ وشعراء وأدباء بأعداد كبيرة، وكذلك بمكتبات ومخطوطات ومدارس ومحاضر وفيرة، مفتوحة في وجه كل من يسعى للحصول على العلم والمعرفة.

حتى إنها خرّجت الكثير من العلماء والأدباء والشعراء، ولقد رأيت الآلاف من طلبة العلم الوافدين من البلاد العربية والأفريقية والأوروبية جاءوا قاصدين هذه البلاد من أجل طلب العلم.

ولقد رأيت منهم العجب العجاب، وما يُضرب به المثل في الصبر والمثابرة والجلد وتحمل المشاق من شظف العيش وقلة المال وقساوة



المناخ كل ذلك في سبيل الله أولًا، ثم في سبيل الحصول على طلب العلم. فإذا رأيتهم ذكّروك والله الأزمنة الغابرة التي عاش فيها خير جيل ألا وهو جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

فلقد رأيت أكثر من واحد منهم يلبسون الثياب القديمة الممزقة، وإذا سألت أحدهم سؤالًا وجدت العلم يتفجر من بين جوانبه فهم يبدأون بتعلم اللغة العربية تعليمًا مُتقنًا، يعجز صاحب العربية أن يُباريهم في ذلك، ثم يبدأون بعد ذلك بحفظ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ثم حفظ المتون وشروحها في الفقه وفروعه، والعقيدة، واللغة، والنحو. حتى إن بعضهم يذهب إلى البادية ويقيم في المسجد ولا يرى ضوء الشمس لشهور طويلة، أو يعيش في الخيام بقرب المسجد، وبعضهم يعمل في الأسبوع يومين أو ثلاثة من أجل الحصول على قليل من المال يتقوّت به ويستعين به على طلب العلم كشراء الكتب والمذكرات.

ومنهم من أتى إلى بلاد شنقيط منذ أن كان طفلًا ولم يرجع إلى دياره منذ سنوات بعيدة، ومنهم من يمشي بثياب ممزقة حتى يتثنى له أن يشتري كتابًا، ولقد رأيت بعضهم يترك نصف طعام العشاء حتى يُفطر به، وبعضهم والله قد لا يجد ما يتعشى به ويبيت يتلوّى من الجوع، وبعضهم يجمع الملابس من البيوت ويقوم بغسلها ليحصل على قليل من المال، ولقد رأيت العشرين منهم يبيتون في غرفة



واحدة، أو في خيمة واحدة. وإذا تحدثت معهم أحسست كأنك بين الأئمة أحمد والشافعي ومالك والأوزاعي وهذه القائمة البيضاء. وكذلك تجد بينهم من معاني الحب والود والإخاء والتراحم والإيثار ما يدعو إلى التفكر والتأمل.

وهذه بعض المواقف أذكرها لشحذ الهمم ولدفع القلوب والأرواح للاهتمام بهذه المعاني المباركة.

فهذا شاب اسمه محمد من دولة غامبيا(١) عمره تسع عشرة سنة، قلت له يا محمد: منذ متى وأنت في هذه البلاد؟ قال: منذ عشر سنين وكان عمري تسع سنوات.

فقلت له: كم حصّلت من علم؟ قال: حفظت القرآن كاملًا في ثلاث سنوات، وحصّلت من العلوم الشرعية كذا وكذا. قلت له: وكيف تتواصل مع والديك؟ قال: أتصل بأمي وأبي كل عام مرة حتى لا تأخذني العاطفة وأفكر في الرجوع، فيكون ذلك عائقًا لي عن طلب العلم.

قلت له: وكيف يصبر والداك؟ قال: لقد دفع بي أبي أنا وأشقائي الثلاثة لطلب العلم هنا وأبقى أخي الأكبر يقوم على رعايته هو وأمي، فوعدته بالزيارة إلى البادية وقمت بزيارته هو وأشقاؤه

---

(١) **غامبيا**: دولة مسلمة تقع على حدود السنغال.



فوجدتهم يعيشون في كوخ من الخشب والصفيح على قليل من الأثاث البالي، ومع ذلك فهم سُعداء وراضون بحياتهم لما في صدورهم من القرآن والعلم الشرعي، وهذا شاب اسمه عثمان من دولة غنيا بيساو، ثيابه ممزقة ولكنها نظيفة. سألته: كم عمرك؟ قال: واحد وعشرون عامًا، قلت له: منذ متى وأنت هنا؟ قال: منذ ست سنوات، قلت له: كم تحفظ من كتاب الله، قال: القرآن كاملًا، قلت له: وكم قرأت ودرست من كتب الفقه والأصول والعقيدة، قال: كذا وكذا، فقلت له: وهل معك إقامة تقيم بها في هذا البلد؟ قال لي: أول ما أتيت استخرجت إقامة لمدة عام، ثم مكثت بدون إقامة طوال هذه الفترة بسبب الفقر وقلة المال، وأنا الآن أعمل لأشتري بعض الكتب لأرجع بها إلى بلدي، ولقد أمسكت بي الشرطة مراتٍ عدة وتأخذني وتُلقي بي على حدود دولة السنغال ثم تنصرف، فأعود مرة أخرى إلى بلاد شنقيط لأواصل الدراسة وطلب العلم والتحصيل، وقد فُعل بي ذلك مرات ومرات، وأنا الآن أنوي الذهاب إلى بلدي لدعوة الناس إلى الإسلام وتصحيح معتقداتهم، وهذا شاب مكث عشرين سنة في بلاد شنقيط وأبواه يرسلان له الرسائل الخطية فلا ينظر إليها ولا يقرؤها ولا يعرف ما كتب فيها حتى استكمل كثيرًا من العلوم الشرعية من كل فن، وعاد بحمد الله عالمًا عاملًا فقيهًا أديبًا.



ولقد لفت انتباهي خلال هذه الرحلة اهتمام الطلاب الأفارقة باللغة العربية اهتمامًا شديدًا يفوق الاهتمام بدراسة العلوم الشرعية، وينفقون الكثير من الأموال في شراء كتب اللغة والنحو والبلاغة والصرف، والكتابة والإملاء والخطوط العربية.

فسألت بعضهم: قال نحن كنا محتلين من المستعمر الفرنسي، وبعضنا كانت بلاده محتلة من المستعمر الأسباني أو الإنجليزي أو البرتغالي. فأصبحت اللغة الرئيسية والأساسية في بلدنا غير العربية، ونحن لا نفهم القرآن والسُّنة ومقاصد الشريعة إلا إذا درسنا اللغة العربية دراسة جيدة ومتينة، حتى يتسنى لنا ونتمكن من دعوة الناس إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ دعوة صحيحة وسليمة.

ثم ضرب لي مثلًا قائلًا: الشيخ الذي كان يدرس لنا في بلدنا الدين كان في إحدى محاضراته يُفسر لنا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ**﴾ [البقرة:٢٥١].

قال: لا أدري ولم أفهم من القاتل داود أم جالوت؟

بسبب ضعف اللغة عنده لم يفهم مقصود الآية، فنحن لابد لنا أن نتعلم اللغة العربية جيدًا، وأن نهتم بتعلم البلاغة والنحو والصرف؛ لأننا بدون معرفة مقاصد اللغة العربية لن نفهم القرآن ومقصود القرآن، ولو أن تعلُّم اللغة العربية أخذ كل أعمارنا ما تركناها حتى نتعلمها وحتى نفهم ديننا فهمًا صحيحًا وسليمًا.



وهذا شاب اسمه عثمان سومارية من دولة غامبيا سألته كم لك هنا في بلاد شنقيط، قال: منذ ثماني سنوات، قلت له هل حفظت القرآن؟ قال نعم، قلت له كم حصلت من العلوم الشرعية؟، قال: كذا وكذا.

قلت له: وكيف تتواصل مع والديك، قال: والدي توفي منذ سنة، ذهبت وحضرت الجنازة ثم عدت لاستكمال الدراسة، وأتواصل مع أمي من خلال الاتصال، ولي أخ هو يرعاها ويقوم على خدمتها.

قلت له: وكيف تتقوت ومن أين يأتيك المال؟، قال مكثت ستة سنوات أطلب العلم أربعة أيام، وأعمل يومين في الأسبوع أستعين بما رزقني الله من مال على أجرة السكن والطعام وشراء الكتب حتى التحقت بمعهد أنس بن مالك منذ سنتين وأنا ولله الحمد، أبيت في سكن المعهد، والمعهد يوفر لنا الطعام والشراب.

وهذا طفل من دولة الصومال اسمه خالد أحمد يبلغ من العمر اثنتي عشر سنة يحفظ كتاب الله كاملاً ومتقنًا له، أتى به والده من الصومال، وقدم له في معهد تكوين العلماء، قلت له: هل لك إخوة ذكور آخرين غيرك قال لا، فانظر إلى صبر الوالدين على فراق ولدهما الوحيد، وكيف دفعا به إلى صحراء قاحلة قاسية المناخ كل ذلك من أجل طلب العلم والتزود للآخرة.



وهذا أخ جزائري أتى إلى موريتانيا وعمره عشر سنوات في صحبة أحد أصدقاء والده والتحق بإحدى المحاضر، وكان يأكل ويبيت مع أولاد شيخ المحضرة، قال: فلما ظهرت على علامات البلوغ تحرجت من المبيت عند الشيخ وتركت بيته، وكنت أعمل بعض الأيام وأدرس بعض الأيام، ومرت على أيام والله كنت أجمع الطعام من القمامة وأنظفه وآكله، قلت له: وأسرتك لم تكن ترسل لك بعض الأموال تستعين بها على طلب العلم؟

قال: أسرتي أسرة من أهل العلم ولكنهم فقراء لا يستطيعون مساعدتي، وكان بعض المحسنين يساعدونني فلما علمت أنهم يمنُّون علي، امتنعت أن آخذ صدقة من أحد، حتى إني والله ما لبست حذاء من جلد منذ قدومي بلاد شنقيط إلا هذه الأيام. قلت له: أنت منذ متى وأنت هنا؟ قال: منذ اثنتين وعشرين سنة.

ثم استطرد قائلًا: كانت تمر على أيام أخرج في ظلام الليل، وأنظر في مقالب القمامة أبحث عن بعض الثياب التي رماها الناس واستغنوا عنها علَّنِي أجد شيئًا أنظفه وأغسله وأستعمله. وأحيانًا أجد حذاء في القمامة آخذه وأنظفه وأرقعه وأصلحه ثم ألبسه.

ثم قال لي: والله ما ذكرت هذا الكلام لأحد فاستر عليَّ، قلت له ولكني أستأذنك، وسوف أنشر هذه المواقف في الطبعة الثانية لكتاب



[وقفات على بلاد شنقيط] وهو الآن أصبح عالمًا، ما تسأله في فن من الفنون إلا أجابك وقد أجازه كثير من المشايخ الشناقطة.

في كثير من كتب أهل العلم، في العقيدة والفقه واللغة فهنيئًا له.

ولقد قمت بزيارة كثير من المحاضر في كثير من البلدان، حتى إني رأيتهم لا يعرفون سوى المصحف وحفظ وشرح المتون العلمية ثم يأوون إلى فرشهم سُعداء راضين عن الله، وعن حظهم من الحياة.





تعظيم الشريعة عند الشناقطة

إن من يُعايش ويتعامل مع الشناقطة يجد فيهم كثيرًا من الخصال الحميدة التي يصعُب أن تجدها في شعوب العالم كالرفق، واللين، والتسامح، وكظم الغيظ، والحلم، والرحمة، والغيرة على الدين، ومحبة الشريعة وتعظيمها، وبغض المنكرات، والحرص على العبادة، وطلب العلم وتعظيم العلماء، والتواضع، والإحسان إلى الغرباء والمهاجرين.

وهذه بعض المواقف التي تعرضت لها وعاينتها ورأيتها:

عندما وصلت إلى بلاد شنقيط استأجرت عاملًا لينظف لي المكان الذي سأقيم فيه مدة إقامتي هناك، وأثناء قيام الرجل بتنظيف المكان سمعته يردد بعض الأبيات، فقلت له: ماذا تقول؟ قال: أراجع متن الأخضري في الفقه المالكي. فقلت له: جيد ثم سكت، ثم انطلق مرة أخرى يُردد أبياتًا في الفقه فقلت له: ماذا؟ فقال: أراجع متن ابن العاشر[1] أيضًا في الفقه. فقلت في نفسي: يا سبحان الله!! هذا

(١) **ابن العاشر:** هو أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري الأندلسي، كان له اليد الطولى في كثير من العلوم، كعلم القراءات، والفقه وأصوله، والفرائض، والنحو، والبيان.

رجل بسيط وبهذه القيمة. فذكرت ذلك لبعض الإخوة، فقال لي: لا تعجب فأنت لم تر شيئًا بعد. ثم ذكر لي قائلًا: مررنا على عامل نظافة في الشارع يكنس القمامة فسمعناه يتمتم بأبيات فسألناه وقلنا له: ماذا؟ قال: أراجع ألفية ابن مالك.

ثم قابلت بعد ذلك من يحفظ كثيرًا من المتون ويشرحها لك وقابلت من يحفظ المئات بل الآلاف من الأبيات الشعرية مما يجعلك تندهش وتعجب، وهذه عادة كل الشعب غالبًا، تجد عنده كثيرًا من الحفظ بسبب الدربة والمعايشة والتمرس حتى أصبحت سجية عندهم.

كنت في زيارة لبعض المشايخ ومعي أخوان من تونس من طلبة العلم، وفي الطريق نادي علينا غلام صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره قائلًا: يا شيخ انظر هناك رجل خلف هذا البيت يشرب الخمر، فنظرنا فإذا هو شاب يشرب مشروبًا غازيًّا، فضحكنا وتعجبنا من هذا الغلام الذي وصل به هذا الحسّ أن الخمر محرّمٌ، وكيف ترسخ في ذهنه حرمة هذا الأمر، وكيف أنه يُخبر من هو أسنّ منه لتغيير هذا المنكر، فعرفت إن أهل هذه البلاد عافاهم الله لا يعرفون الخمر والخنزير.



لقد رأيت الشرطة في الشارع يعظمون الشريعة، يحافظون على أداء الصلوات الخمس في المسجد، وبعضهم قد أرخى لحيته ولا يفارق المصحف والسواك يده، وإذا طلبت من أحدهم مساعدة انقاد معك إلى المكان الذي تريد. وقد سألت بعض الإخوة عن هذه الظاهرة فقال لي: أعارني بعض المشايخ سيارته وكانت أوراق السيارة في التابلوه الخاص بالسيارة، وكنت أسوق السيارة فاستوقفني رجل المرور، وسألني عن أوراق السيارة فقلت: إنها موجودة، وعندما أردت فتح التابلوه لم يُفتح، وذلك قدر من الله، فقلت له: أنا مسلم، وأنا والله لا أكذب، والأوراق موجودة بالتابلوه وهو لم يفتح، فقال: نحن نريد الأوراق، فقلت: أحلف لكم بالله أن الأوراق موجودة بالتابلوه، وأنا مسلم ولا أكذب فنظر إليَّ الشرطي ورأى لحيتي وسمتي فصدقني وقال: نعم أنت مسلم ونحن نصدقك، ممكن تنصرف وما عندك مشكلة.

ثم ذكر لي موقفًا آخر يدعو للعجب، قال: كان بعض الإخوة على سفر من ولاية إلى ولاية أخرى، وكان يركب سيارة أجرة (تاكسي) وكان صاحب التاكسي لم يستكمل أوراق السيارة الخاص به، فاستوقفته الشرطة وسألته عن أوراق السيارة، فقال لهم: أوراق السيارة ناقصة، فقالوا له: عندك خطية (مخالفة) وعليك أن تدفع



ستة آلاف أوقية (وهي ما تعادل مائة وعشرين جنيهًا مصريًّا)، فقال لهم سائق التاكسي: إن شاء الله سوف أستكمل الأوراق عند عودتي، (وأن تعفو أقرب للتقوى)، فقال له الشرطي: قد عفونا عنك انصرف ولكن لابد من استكمال أوراق السيارة.

كان بعض الإخوة يدرس في البادية في مكان يُقال له (النباغية)، وهو مكان قاسي المناخ، يعيش فيه طلبة العلم على قليل من الطعام كشرب لبن الإبل وقليل من الخبز، وهذا المكان مُشتهر بأهل العلم الفحول، وهو مكان بدائي لا كهرباء فيه ولا مياه، وبه كثير من الخيام وتظهر عليه البداوة والتسحر، قال هذا الأخ: في يوم من الأيام استدعاني مسئول الشرطة وسألني عن أفكاري وتوجهاتي، وماذا أفعل في النباغية، قال: قلت له: أدرس ألفية ابن مالك، فقال له المسئول الأمني: سوف أعطيك جملة من الألفية إذا أعربتها إعرابًا صحيحًا فسوف أتركك تنصرف فأعطاه جملة من الألفية فأعربها إعرابًا جيدًا، فقال له: ما شاء الله!! أنت تدرس جيدًا، باسم الله، خذ جوازك وانصرف، وانصرف الأخ بسلام. فالرجل العادي ورجل الشرطة ورجل القضاء وغيرهم من طبقات المجتمع تربَّوْا في الغالب منذ صغرهم على حفظ القرآن والمتون والذهاب إلى المحاضر، فترك ذلك أثرًا طيبًا في نفوسهم وفي علاقتهم بالمجتمع، فأصبح هناك تناغم بين الشعب وبين أفراد الشرطة والأمن.

جلس بعض الإخوة على كرتونة بها بعض الكتب الخاصة باللغة العربية ككتب الصرف والبلاغة والنحو. فقال له رجل شنقيطي: يا شيخ لماذا تجلس على هذه الكرتونة؟ فهذا ليس جيدًا، فقلت له: لماذا؟ قال: لأن بها كتبًا كتبت باللغة العربية، فقلت له: الأمر هين، وليس هناك حرمة، فقال: نعم، ولكن لابد أن نعظم اللغة العربية، فقلت له: جزاك الله كل خير، ثم قال: نحن نحزن كثيرًا. أن تُعبّأ الكتب الإسلامية التي تستجلب من مصر والمغرب ودول الخليج في كراتين السجائر، وهذا لا يليق. فقلت له: صحيح صدقت. فانظر كيف يعظمون كتب الشريعة والكتب التي تحمل بين طياتها نصوص وأصول اللغة العربية.

كنت إذا مررت في مدينة من المدن أو ولاية من الولايات وحان موعد صلاة من الصلوات الخمس رأيت منظرًا عجيبًا، رأيت أهل المتاجر يغلقون متاجرهم، حتى إنك ترى أيضًا النساء أصحاب المحال يهرعون إلى أماكن الوضوء لأداء الصلاة في وقتها، وإذا ذهبت إلى المسجد ربما لا تجد فيه مكانًا من كثرة المصلين، وكأنك في صلاة الجمعة، فيذكرك هذا بقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يداعبنا ونداعبه فإذا حضرت الصلاة قام عنا كأنه لا يعرفنا ولانعرفه».



وإذا ركبت سيارة لتنتقل من مكان إلى مكان فلا تسمع من السائق والركاب الذين يقلون السيارة إلا التهليل والتكبير والتسبيح.

كذلك رأيت من هذا الشعب الكثير من الصبر والرفق واللين ما يدعو للعجب.

فقد لفت انتباهي أن غالب سيارات الأجرة بها كثير من الخدوش والصدمات الشيء الملفت للانتباه، بل بعض السيارات الملاكي مصابة بمثل هذه الصدمات. فكان هذا لغزًا محيرًا بالنسبة لي وبينما أنا أستقل سيارة أجرة أنتقل بها من مكان إلى مكان آخر فاصتدمت بسيارة أخرى، فقلت في نفسي: سوف تحدث مشكلة الآن، فنزل سائق السيارة من سيارته ونزل الآخر ونظرا إلى سيارتيهما وقد تأثرت السيارتان من الحادث، فقال أحدهما للآخر: والله ما عندك مشكلة، سامحك الله. وانصرفنا. فعرفت حينها السر الذي سألت عنه، لماذا غالب السيارات بها خدوش كثيرة؟

كنت أحيانًا أحتاج إلى تغيير بعض العملة، فكنت كلما توجهت إلى بنك من البنوك وجدته شبه مغلق وليس عليه إقبال، فسألت عن هذا السبب، فقيل لي: إن البنوك تتعامل بالربا ونحن لا نريد أن نتعامل مع البنوك من أجل هذا الأمر، وهناك صرافة معتمدة وتتعامل بطريقة تتوافق مع المعاملات الإسلامية التي لا تتعارض مع الشرع وليس فيها حُرمة.





الزهد والتعالي على متع الحياة
عند الشناقطة

إن الحياة المحضرية عند الشناقطة كدٍ وشظف عيش، وعناء كبير، ورغم ذلك فقد استأنس بها الشناقطة وأحبوها حبًا جمًا تهون في سبيله كل التضحيات، واقتدى بهم آخرون لم يرضوا بالتخلف عن الركب؛ فالتقى الركبان في رحاب العلم بين صعاب الحياة وصعاب الفنون العلمية بالجَلدِ والعزيمةِ القوية، لا تثنيه المكاره عن إطفاء غلّته .. وصابر مثابر أدرك أن قيمة الإنسان هي قيمة علمه، فرجح مصلحته على راحته وشمر عن ساق الجد في سبيل اكتساب العلم.

كان محمد فال بن متالي يتردد في طفولته على أحد العلماء ليدرس عليه النحو، ولكن هذا العالم لم يكترث به، وكان يعنى بغيره من الطلبة الكبار، فضاق صدر الطفل، وبكى كثيرًا فانفتحت له أبواب المعرفة من ذلك اليوم، وبرزت عواطفه وتوهجت، ولم يمد عينيه إلى متع الحياة حتى صار علمًا وقامة كبيرة.

ومن كان ذا لوح وهم وطاعة
فلا يدن للمستصبيات اللواعب





فما أفسد الألواح والهم والتقى

كبيض التراقي مشرفات الحقائب[(١)]

وكان أب الأخطور[(٢)] الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي صاحب كتاب أضواء البيان، في المحضرة يطلب العلم، فاقترح عليه بعض أصدقائه الزواج، فرد شعرًا:

دعاني الناصحون إلى النكاح

غداة تزوجت بيض الملاح

فقالوا لي تزوج ذات دل

خلوب اللحظ جائلة الوشاح

تبسم عن مؤشرة رقاق

تمج الراح بالماء القراح

كأن لحاظها رشقات نبل

تذيق القلب آلام الجراح

ولا عجب إذا كانت لحاظ

لبيضاء المحاجر كالرماح

(١) أحمد بن الأمين [ص: ٢٤٢] وانظر المنارة والرباط ، ديوان محمد محمود بن أحمديه [ص: ١٢٠] .

(٢) هكذا يلقبه الشناقطة حتى يومنا هذا بهذا اللقب، وهذا اللقب أشد شهرة من اسمه في بلاد شنقيط .





فقلت لهم: دعوني إن قلبي
من الغي الصراح اليوم صاح

ولي شغل بأبكار عذارى
كأن وجوهها ضوء الصباح

أراها في المهارق لابسات
براقع من معانيها الصحاح

أبيت مفكرًا فيها فتضحى
لفهم الخدم خافضة الجناح

أبحت حريمها جبرًا عليها
وما كان الحريم بمستباح[١]

وقد ذكر العلامة ابن العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العلامة أب الأخطور محمد الأمين الجكني الشنقيطي دخل عليهم الجامعة بمنظر رث الثياب عليه مظاهر البدوي، فقال في نفسه أنا أترك درس الشيخ عبد الرحمن السعدي وأجلس لأستمع لهذا البدوي قال: فلما تكلم فإذا به بحر لا ساحل له، فإذا بهم أمام عالم من العلماء الكبار.

هكذا ينشغلون بالعلم، فيعزفون عن متع الحياة وشئون الصبا والشبيبة، منقطعين إلى اللوح والكتاب حتى مماتهم.

(١) حياة موريتانيا [٤٥] للمختار بن حامد، وانظر بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص [٩٠] لأ الخليل النحوي.





أسباب انتشار المذهب المالكي في بلاد شنقيط

كانت بلاد شنقيط لم تنل حظًا كبيرًا من العلم والمعرفة قبل قيام دولة المرابطين، بل ربما كانت في تلك الفترة وفي هذه المرحلة بلا مذهب معين لانعدام السلطة المركزية بشكل منتظم، وبسبب فتور التواصل الثقافي[(١)] بين بلاد المغرب، وبلاد شنقيط، التي لم يصل إليها بعد الفتوحات الإسلامية إلا التجار الذين حرفتهم البيع والشراء[(٢)].

ولكن هذا الوضع تبدل سريعًا بعد قدوم عبد الله بن ياسين إلى بلاد شنقيط في القرن الرابع الهجري فقد عزز ورسخ عبد الله ابن ياسين المذهب المالكي في بلاد شنقيط بعد أن اجتمع عليه نحو سبعين شيخًا يعلمهم ويفقههم في دينهم، فانقادوا له انقيادًا عظيمًا، وأولوه برًا وتكريمًا، ولازموه مدة طويلة[(٣)]، ومن الطبيعي أن يكون عبد

(١) تاريخ القضاء وكبريات النزاعات القضائية في موريتانيا [ص: ٧٦] لمحمدن ولد الحسن، وانظر دعوة المرابطين في صحراء شنقيط [ص: ١١٥] لأحمد فال سيدي القلاوي.

(٢) الحلل الوشية [ص: ١٩] وانظر دعوة المرابطين في صحراء شنقيط [ص: ١١٥] لأحمد فال سيدي القلاوي

(٣) الحلل الوشية [ص: ٢٠] وانظر دعوة المرابطين [ص: ١١٥] لأحمد فال سيدي القلاوي.





الله بن ياسين هو الذي يعلمهم المذهب المالكي، باعتباره الدستور الرسمي للدولة المتفق على إنشائها مع أبي عمران الفاسي شيخ المالكية بمدينة القيروان، وتلميذه وجاج بن الزللو اللمطي السوسي، في مدينة نفيس، وتعميمه على مختلف الشرائح الاجتماعية القائمة في بلاد شنقيط، التي كانت تشبه إلى حد كبير طبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة والبعد عن التعقيد، ولم يزل المذهب غضًا عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما في غيره من المذاهب(١)، ولهذا فإن عقلية أهل شنقيط قد غلبت عليها نزعة أهل الحديث، وهذا كان من عوامل انتشار المذهب المالكي في تلك البلاد. ولقد تعزز المذهب المالكي مرة أخرى بعد انتصار المرابطين وقيام دولتهم وتوحيدهم تحت راية واحدة، عقيدتهم الإسلام ومذهبهم مذهب الإمام مالك، حتى يومنا هذا المذهب عند الشناقطة، هو مذهب الإمام مالك بن أنس رحمة الله عليه.



(١) المقدمة [ص: ٣٥١] لابن خلدون .



الشناقطة والدعوة إلى الله في غرب أفريقيا

كان لعلماء شنقيط ومشايخها في كل العهود القديمة والحديثة دورٌ عظيم وكبير في نقل الإشعاع الإسلامي إلى الشعوب السمراء، حتى اليوم إذ يؤكد أغلب المؤرخين أنه بجهودهم بعد توفيق الله تغلغلت العلوم الإسلامية واللغة العربية إلى غالب دول غرب أفريقيا.

حتى كان الأمراء وملوك القرى الأفارقة قديمًا وحديثًا الذين يعتنقون الإسلام، يتخذون شيوخًا من الشناقطة يعلمونهم أحكام الدين ويقرئونهم القرآن، ويؤمونهم في الصلاة ويبذلون النصح لهم وهذه شهادات غير المسلمين بدور الشناقطة في الدعوة إلى الله في غرب أفريقيا.

يقول بيرلابات:

إن الشناقطة هم الذين نقلوا المحمدية [الإسلام] إلى الزنوج، ولهذا كان لهم نفوذ قوي على هذه الشعوب التي تنظر إليهم كأساتذة مرشدين في كل ما يتصل بالدين، وتستشيرهم في غالب شأنهم(١).

(١) في مشاهدات رحلته في الفترة من ١٦٧٠م إلى سنة ١٦٩٠م انظر بلاد شنقيط المنارة والرباط، [ص ٢٦٠].

ويقول آمادوديا:

لم يدخل الإسلام غرب أفريقيا عن طريق الغزو الإمبرالي ولا عن طريق شواطئ النيل، وإنما عن طريق الصحراء التي اعتبرت فيما بعد «بحرًا لا سبيل لعبوره»(١).

ويقول فرنسيس مورفي: هناك مجموعات على جانبي النهر [نهر السنغال]، ذات بشرة سمراء، [تشبه العرب] ومعظمهم يتكلم اللغة العربية، لأنهم يتعلمونها في مدارسهم، ولأن القرآن أيضًا وهو شريعتهم، مكتوب بهذه اللغة»(٢).

ويقول جلبر فييارد: سلسلة الدعاة الأفارقة الذين انتشروا يدعون إلى الإسلام، تخرجوا من محاضر بلاد شنقيط(٣).

والحق ما شهدت به الأعداء.

لقد كان للشناقطة دورٌ كبير في نشر الإسلام في أفريقيا الغربية، فقد كانوا يجوبون البلاد فيستقطبون من يلقون بالقيم والأخلاق وبالدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كابدوا في ذلك من المشاق القدر الكبير.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٠ .

(٢) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي [ص: ٣٧١] لأنور الجندي.

(٣) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص: ٢٦٠] لخليل النحوي .

ولقد كان لدولة المرابطين دورٌ فعال في انتشار الإسلام وتوغله في أفريقيا. حتى استغل الشناقطة الظرف الاستعماري بذكاء وحنكة واستفادوا من وسائل المواصلات الحديثة لنشر الإسلام عبر أفريقيا، ولقد لاحظ رجال الإدارة الفرنسية هذا النشاط بقلق، فأكدوا أن المشايخ الشناقطة قد أقبلوا على غزو أفريقيا في ظل الاستعمار، وشملت فتوحاتهم هذه السنغال، وغامبيا، وغنيا، وساحل العاج، ومالي مستغلين «ظروف الأمن التي حققها الفرنسيون»[١].

ولقد هاجرت مجموعات شنقيطية واستوطنت في دول غرب أفريقيا، وانصهرت في المجتمع الأفريقي، وفقدوا دماءَهم العربية الخالصة ولكنهم أعطوا مقابل ذلك الإسلام، وكذلك من الجانب الآخر، تجد قبائل أفريقية ذات أصول أفريقية سكنت بلاد شنقيط واستوطنت فيها فامتزج الدم العربي بالدم الأفريقي حتى اليوم فلقد شاهدت أثناء رحلتي إلى غرب أفريقيا العبارات والقوارب تنقل الأفارقة عبر نهر السنغال إلى بلاد شنقيط كل يوم من الساعة الثامنة صباحًا إلى الثامنة مساءً لا تتوقف وفود وحشود من طلبة العلم يتوافدون على بلاد شنقيط، ولقد دارت كثير من المناقشات بيني وبين المشايخ الأفارقة الطاعنين في السن، قالوا لقد تعلمنا في

(١) دراسات عن الإسلام في السنغال .





بلاد شنقيط، واليوم أولادنا وأحفادنا يتعلمون أيضًا هناك، وأثناء إقامتي في هذه البلاد كنت أرى الوفود من طلبة العلم من الشباب الصغير السن يأتون من أدغال أفريقيا ويكابدون عناء الطريق ومتاعب السفر من أجل التحصيل العلمي للعلوم الشرعية ودراسة اللغة العربية ما يدعو للعجب والتأمل[1].



(١) لقد ذكرت كثير من المواقف العظيمة لهؤلاء الشباب في باب طلبة العلم في بلاد شنقيط، انظر ص: [٦٤].





حُسن الضيافة عند الشناقطة

من الطبيعي أن سكان الصحراء الذين تقوم حياتهم بدرجة أولى على الرعي والمتاجرة، ترغمهم الظروف على التنقل والسفر شبه الدائمين وراء المراعي أو طلبًا لضوالّ نَعَمِهِمْ أو ضمن القوافل المتنقلة بحثًا عن بعض الحاجيات الضرورية، وإن كرم الوفادة يعتبر أول فضيلة يتمتع بها سكان الصحراء، وهم يمارسونها تجاه الضيف غنيًا كان أم فقيرًا.

فعندما تمر على حي قافلة من القوافل تنزل وسط المخيم فيأتي السكان فورًا بالحصائر التي تستخدم فرشًا للضيوف، وترسل مختلف أسر الحي أقداحًا من اللبن والعصيدة إلى خيمة زعيم الحي ليتم توزيعها على الضيوف هكذا فإن المخيم يتعاون على وفادة الضيوف الذين تتولى بعض أسر الحي معاملتهم عندما يكون عددهم قليلًا، أما إذا تعلق الأمر بضيف واحد فإنه يختار الأسرة التي ينزل عندها والتي تتولى إكرامه، وغالبًا ما ينتقي الضيوف الخيام الأحسن مظهرًا، وقد تستقبل الأسرة أحيانًا كثيرة بعض الضيوف أثناء خمسة أو ستة أيام متتالية.



ويذكر بعض الرحالة بعض نماذج فريدة من حُسن ضيافة وكرم الشناقطة.

يقول كايي: أثناء رحلتي الطويلة عبر الصحراء، أرسل لي بعض الشناقطة نقودًا مع رجل من الزنوج وتمني لي سفرًا ميمونًا، وزارني بعض الشناقطة وقال لي: أنت الآن مع الشناقطة ويجب أن لا ينقصك أي شيء[١].

ويمضي هذا الرحالة مؤكدًا العناية التي منحها له الشناقطة إذ يقول: طوال مقامي في صحراء شنقيط أحاطني الشناقطة بالعناية وعاملوني معاملة حسنة، فلم أدفع أي مبلغ مقابل نفقتي وكانوا يسارعون إلى إعطائي كلما أبدي الرغبة في الحصول على شيء.

ويتناول هذا الرحالة كيفية معاملة مخيم آخر للشناقطة فيقول: دخلنا مخيمًا للشناقطة دون أي خوف فاستقبلنا زعيمه وقدم لنا أسرة[٢] ولبنًا وتمرًا ولحماً جافًا، وقال: إنه سيرافقني ولا يطلب مني أيّ مقابل[٣].

ويضيف المستكشف فينصان قائلاً:

---

(١) المجتمع البيضاني [ص: ٣١٦] لمحمدو بن محمذن.
(٢) جمع سرير.
(٣) المصدر السابق [ص: ٣١٧].



إن الشناقطة كثيرًا ما يقدمون لضيوفهم ما توفر لديهم من طعام، ويبيتون هم وعائلاتهم على الطوى، وذلك لأن معاملة الضيوف عندهم تحتل الصدارة مقارنة مع العناية بأسرهم.

وذكر المستكشف هولي: أن الشناقطة يستقبلون ضيوفهم بحفاوة ويساعدونهم على إنزال الأمتعة عن ظهور الدواب التي تقلها ويسرعون بتقديم الشراب والأكل إلى الضيوف بغض النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية والقبلية(١).

ويقول: عندما يحل الضيوف بأحد أحياء الشناقطة فإن مختلف أسر ذلك الحي تبعث طعامًا إلى الخيمة التي نزلوا بها؛ وذلك للمساعدة في معاملتهم(٢).

وهذا ما وجدته ولمسته في هذا القطر الطيب، فهم عندهم كرم الوفادة، وكثيرًا ما تجد انتشار عادة تقديم الشاي للضيوف في نطاق معاملتهم، لأن تقديم الشاي للضيوف لا يقل أهمية عن تقديم اللبن واللحم، بل إن بعض الضيوف يفضله على جميع المأكولات والمشروبات.

---

(١) المصدر السابق [ص: ٣١٨].
(٢) المصدر السابق [ص: ٣١٨].





وقد يعود هذا التفضيل إلى ندرة مادة الشاي وطريقة صناعة الشاي وتقديمه في كؤوس صغيرة ذات رغوة وفيرة، ولابد من تناول الشاي ثلاث كاسات متتالية.







صور من جهاد الشناقطة

وصل الإسلام إلى بلاد المغرب والأندلس وشمال وغرب أفريقيا في القرن الأول للهجرة، عن طريق الغزوات التي قام بها الفاتحون أمثال: معاوية بن خديج الكندي، وعقبة بن نافع الفهري، وأبي المهاجر دينار، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، ثم توطدت دعائم الإسلام في القرن الثاني من الهجرة على يد عبد الله ابن الحباب عندما كان واليًا على إفريقية حتى ظهر في العقد الثالث الهجري إقبالًا متزايدًا على الإسلام، وبعد حين من الزمن، دبت عوامل الفرقة والتشرزم، وافترق الناس شيعًا ما يقرب من مائة وعشرين سنة حتى أتى بعد ذلك رجل من أهل الدين والصلاح وهو أبو عبد الله بن تيفاوت اجتمع الناس عليه، فوحد القبائل في بلاد شنقيط على مواصلة الجهاد ضد الوثنية، حتى نال الشهادة وهو يطارد الوثنيين في إحدى غزواته ضد الزنوج الوثنيين في الممالك المجاورة لبلاد شنقيط[1].

وبعد استشهاد أبي عبد الله بن تيفاوت، تولى الحكم بعده يحيى ابن إبراهيم الجدالي، الذي اصطحب معه من المغرب الأقصى عند

(١) انظر: [ص: ٩].



رجوعه من أداء فريضة الحج عبد الله بن ياسين ليعلم الناس دين الله عَزَّوَجَلَّ.

ولم يكن عبد الله بن ياسين فقيهًا يُفتي الناس، ويفسر القرآن ويروي الأحاديث فحسب، بل كان رجلًا نافذ البصيرة بعيد النظر، ذكيًا خبيرًا بالمجتمع الذي يعيش فيه، وله قدرة خارقة على التأثير في النفوس، قام يحيى بن إبراهيم بعمل رباط لعبد الله بن ياسين في جزيرة قرب نهر السنغال، وقيل: على شاطئ المحيط الأطلسي، ليتيح له لونًا من الحماية من المشاغبين، وحتى يتمكن من تعليم الناس دين الله عَزَّوَجَلَّ فتدفقت عليه أعداد كثيرة، حتى أصبح هذا الرباط بمثابة شعلة تسرب نورها في ظلمة الصحراء، وأصبح للمرابطين مركزًا قويًّا للدعوة الإسلامية هابه الأعداء، فلما بلغ عدد المرابطين ألف رجل من أشراف الملثمين. قام فيهم عبد الله بن ياسين خطيبًا فوعظهم ودعاهم إلى الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، واستطاع بإذن الله وعونه تحويلهم من رعاة للإبل والبقر والغنم، إلى طبقة من المجاهدين في سبيل الله.

وعندما تأكد عبد الله بن ياسين من وحدة الجماعة قال لهم: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[التوبة: ٤١].

وبدأ جهاد عبد الله بن ياسين ورفاقه بقبيلة جدالة فقاتلهم قتالًا شديدًا، قتل منهم ستة آلاف رجل وأسلم باقيهم إسلامًا جديدًا،



وكان ذلك سنة أربعمائة وأربعة وثلاثين هجرية(١) ثم سار إلى لمتونة(٢) وأطبق عليها حتى أذعنت لطاعته وبايعته على الكتاب والسنة، ثم سار بعد ذلك لقتال مسوفة(٣) فحذوا في الطاعة والبيعة حذو لمتونة(٤) وجنى عبد الله بن ياسين من غزواته هذه الأموال والخيل والسلاح، واشتد بأسه، واشتهر في جنبات الصحراء، ثم قام عبد الله بن ياسين بتنظيم مجتمعه، وتأليف قلوبهم، ثم قام بجهاد العدو الأكبر وهي مملكة غنة الوثنية والتي كانت تسيطر على مدينة أوداغست(٥) الاستراتيجية التي تتحكم في أهم الطرق التجارية، فقام المرابطون الشناقطة بحملة عسكرية ودارت بينهم معركة حامية الوطيس وهي من أهم وأصعب المعارك التي خاضها المرابطون وحققوا من خلالها نصرًا عظيمًا(٦).

وبعد هذا النصر كان للشناقطة المرابطين صدى قويًّا أثر في أنحاء المغرب، على إثْر ذلك تدفق المرابطون من الصحراء في العشرين من

(١) انظر البكري [ص: ١٦٧].
(٢) لمتونة: قبيلة من القبائل.
(٣) قبيلة من القبائل.
(٤) انظر ابن خلدون [ص: ٢١٦].
(٥) أوداغست: شرق بلاد شنقيط.
(٦) المغرب في ذكر أفريقيا والمغرب [ص: ١٦٨].



صفر سنة أربعمائة وسبعة وأربعين في أعداد ضخمة واتجهوا إلى درعة واشتبك الجيشان في معركة هزم فيها العدو هزيمة شنيعة.

عاد عبد الله بن ياسين إلى الصحراء بعد هذا النصر المؤزر، كانت الخطوة التالية هي غزو بلاد السوس[(١)].

توجه الشناقطة نحو بلاد السوس بنحو خمسين ألف راكب وراجل[(٢)] اجتاحوا مدن السوس وسيطروا عليها وقتلوا منهم أعدادًا كبيرة، وحملوهم على أن يسلموا إسلامًا قويًا وكانت هذه المعركة من أعظم أسباب القضاء على الشيعة والقضاء على بقايا اليهود، وبعد هذا النصر سار المرابطون إلى مدينة أغمات وضربوا حولها حصارًا شديدًا، وسيطروا عليها وطهروها من براثن الشرك والانحلال.

بعد أن تولى يوسف بن تشفين إمارة المرابطين الشناقطة، بدأ استعداداته العسكرية لجهاد بلاد المغرب، فاتجه بجيشه إلى فتح مدينة فاس، ودارت بينهم معارك عظيمة حتى خضعت له، ونزل بجيشه بالبلاد المحيطة بنحو مائة ألف جندي وقاتلهم قتالًا شديدًا لمدة سبعة أيام، حتى دخلت هذه البلاد عنوة بالسيف دون قيد أو شرط وتابع يوسف بن تشفين فتوحاته حتى وصل إلى مدينة تلمسان.

---

(١) الحلل الوشية [ص: ٢٢].
(٢) ابن الأثير [٨/ ٣٢٩].



فأرسل يوسف بن تشفين كتابًا إلى أمير تلمسان بالعفو إذا دخل في طاعة المرابطين دون قتال، فاستجاب أمير تلمسان للأمر وخرج لاستقبال جيش المرابطين، ولم يكتف الشناقطة بهذا النصر، بل توجهوا إلى مدينة طنجة بجيش كبير يتألف من اثنى عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفًا من سائر قبائل المغرب وهزم الشناقطة جيش طنجة، واستولوا عليها، ثم توجهوا إلى مدينة سبتة فحاصروها برًا وبحرًا ودارت معركة شديدة، انتصر فيها المرابطون الشناقطة، وقصدوا بعد ذلك الأندلس. هكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى، وأقامتها عبقرية رجال عظام أنجبتهم الصحراء الشنقيطية مثل: يحيى بن إبراهيم الجدالي، وعبد الله بن ياسين، ويحيى بن عمر، وأبي بكر بن عمر، ويوسف بن تشفين الذين حوّلوها إلى ملك ضخم في بلاد المغرب والأندلس[١] حتى كانت دولة المرابطين من أعظم أسباب عدم سقوط الأندلس أربعة قرون.

وظل جهاد الشناقطة، حتى أصبح لهم دولة عظيمة كانت تهدف إلى نشر العقيدة الصحيحة، ونصرة دين الإسلام وإعلاء كلمته وتطبيق الشريعة الإسلامية حتى عم عدلها أرجاء الدولة المترامية الأطراف. حتى جاء المحتل الغربي بعد سقوط الأندلس، والقضاء على التواجد الإسلامي العربي في الأندلس، فدارت نزاعات ومعارك

(١) دعوة المرابطين في صحراء شنقيط لمحمد محمود ولد محمد الأمين [ص: ٢٢٩].



عديدة بين المحتل الغربي والشناقطة، وقاوم وجاهد الشناقطة المحتل بالسلاح، وقاومه أيضًا وجاهده بالثقافة الإسلامية العربية، وقاوم وجاهد المحتل أيضًا سياسيًا حتى رحل عن بلاد وديار الإسلام.

وإليك أخي الكريم صور جهاد المحتل الغربي بالسلاح والثقافة والسياسة ووقوفهم في وجه الغزاة، وبهذا السلاح مات عدد كبير من الفرنسيين وهلكت مواشيهم، وهب المواطنون في جميع البلاد شمالًا وجنوبًا شرقًا وغربًا لمواجهة الاستعمار، ولم تكن البنادق البسيطة التي يركبها الصناع المحليون مؤهلة لمواجهة المدفعية الفرنسية والعتاد الحربي المتطور، ومع ذلك، فقد استخدم المجاهدون أسلحتهم البسيطة وسطروا بها أروع الملاحم ضد الغازي الفرنسي، ومنيت القوات الفرنسية بهزائم كثيرة، وباع المجاهدون الشناقطة أنفسهم لله عَزَّوَجَلَّ غير هيابين ولا متقاعسين.

يقول الجنرال غورو: ليس باستطاعة من لم ير الشناقطة أن يدرك مدى بسالتهم .. إنهم لا يلبسون إلا ثوبًا فضفاضًا خفيفًا يحسرونه عن سيقانهم في حالة الحرب، ولا يملكون من السلاح إلا بنادقهم العتيقة ورصاصها والخناجر .. تراهم بشعورهم الطويلة وعيونهم البراقة يقفزون من صخرة إلى صخرة، يختفون خلف أبسط حاجز، يطلقون الرصاص، يغيرون مواقعهم، تمامًا كما تفعل الوحوش[١].

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص ٢٣٧، ٢٣٨] لخليل النحوي.





مقاومة وجهاد المحتل الفرنسي ثقافيًا:

لقد قام المحتل الفرنسي بفرض حصار ثقافي على بلاد شنقيط، وذلك بزرع المدارس الفرنسية ووضعها في مواجهة حادة مع المحضرة.. وقد صممت خريطة البلاد ونظمت إدارتها على نحو يكفل تحقيق ما يرمي إليه الحصار الثقافي من عزل بلاد شنقيط عن محيطها العربي الإسلامي، فقد شذبت أطراف بلاد شنقيط كما تصورها المحتل الفرنسي في خريطته الأولى، وحولت مسالك التجارة من الشمال إلى الجنوب، وحشرت بلاد شنقيط في منطقة أفريقيا الغربية الفرنسية، واتخذت مدينة من مدن دولة السنغال عاصمة لهذه البلاد.

يقول لكرتوا: إن السلطة الاستعمارية «زجت بموريتانيا» في أفريقيا الغربية الفرنسية واتخذت مدينة سان لويس (وهي الآن مدينة اندار السنغالية) مقرًا لحكومتها، وبذلك فرضت على هذا الشعب الانبتات من جذوره»[(١)].

وقد امتد الحصار إلى مراقبة المشايخ والدعاة والحجاج في حِلهم وترحالهم، ومنع تداول الصحف العربية الصادرة في بلاد لا تخضع للرقابة الفرنسية، وكان هذا الحظر عامًا في منطقة أفريقيا الغربية الفرنسية آنذاك،

---

(١) المصدر السابق [ص: ٣٣٩].



وبدأ المحتل يفرض لغته وثقافته في بلاد شنقيط بإنشاء المدارس الفرنسية وانتشار حملات التنصير، فلم تجد نفعًا، فمارس على الشناقطة لغة العصا الغليظة، كذلك لم تجد نفعًا فأدرك المحتل الفرنسي خطأ حساباته، واكتشف أن المجتمع الشنقيطي لم يصبح ثمرة يانعة لمن أراد اقتطافها، بعد أن رأى من المجتمع الشنقيطي مقابلة المخططات الفرنسية التنصيرية، بالتحفظ والتحدي والصبر والجلد والمحافظة على تعاليم وشعائر الإسلام، والعمل الدؤوب على نشر الإسلام، حتى لم تقف مواجهة الإسلام للنصرانية عند هذا الحد، بل إن الشناقطة مضوا بعد ذلك فاستغلوا بذكاء وجرأة وإقدام «وحدة الأراضي الفرنسية» وظروف «الأمن التي سادت مع هيمنة الاستعمار ووسائل المواصلات السريعة «وعلمانية» الدولة الفرنسية لفتح أفريقيا دينيًا وثقافيًا، فانطلقوا في أرجاء القارة يدعون إلى الإسلام بالقدوة الحسنة والكلمة الطيبة، وبالحكمة والموعظة الحسنة، فسجلوا في ذلك نجاحًا باهرًا، ضيقوا به الخناق على المستعمر[1].

ففي سنة ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين لاحظ الحاكم العام لغرب أفريقيا كورناي بقلق أن عدد المسلمين في المنطقة قد تطور بسرعة مذهلة، حيث ارتفع من ٣,٨٧٥,٠٠٠ نسمة سنة ألف وتسعمائة وأربعة وعشرين إلى ٦,٢٤١,٠٠٠ سنة ألف وتسعمائة

(١) الوثائق الوطنية بنواكشط – ٨/ ٤١.



وست وثلاثين، وتحدث عن انهيار سمعة فرنسا وهيبتها، وقال: إن المستقبل ينذر [يبشر] بانتشار الإسلام في عموم المنطقة[١].

لقد انبهر المحتل الفرنسي بحصانة المجتمع الشنقيطي الدينية، وحضارته العلمية وصلابته الثقافية.

كتب الحاكم الفرنسي العام لغرب أفريقيا، في تقرير إلى وزير المستعمرات، يبرز الخصوصية الثقافية للشناقطة: «وجدنا شعبًا له ماض من الأمجاد والفتوح، لم يغب عن ذاكرته بعد ومؤسسات اجتماعية لا نستطيع أن نتجاهلها، إن علاقات تضامن وثيق تسود بينهم رغم بداوتهم وتمزقهم، ومن الخطأ أن نقارنهم بالشعوب السوداء ذات التقاليد الأضعف، والشعور الوطني الخافت.

ومن العجيب أننا وجدنا لدى الشناقطة ثقافة رفيعة أكثر تطورًا من الثقافة التي لاحظناها لدى مثقفي أفريقيا الشمالية.

إن نفوذ بعضهم يمتد من غامبيا الانجليزية إلى مناطق المغرب الأقصى، وإن أحياءهم حرم آمن لا يستباح، يلجأ إليه المغلوبون فيأمنون، فكان لابد من اتخاذ الحيطة والحذر إزاء شعب هذا شأنه، وإعداد العدة الكافية لاكتساح قلاعه الدينية والثقافية، وتطويع مؤسساته الاجتماعية العريقة[٢].

---

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص: ٣٤٢] الخليل النحوي.

(٢) الوثائق الوطنية بنواكشط - الملف (٨/ ٤١).



وقال دشاسي: إن مقاومة الاستعمار [الاستخراب] الثقافي اقترنت بحماس ديني عارم، فقد ازداد الشناقطة تمسكًا بالإسلام وتطبيقًا لشعائره خلال فترة الاستعمار(١).

هكذا انبهر رجال المحتل الفرنسي بأصالة الشناقطة وصلابتهم وحصانتهم الروحية والثقافية، ولم يخفوا انطباعهم هذا، ولم يستطيعوا التنكر كليًا للحقائق التي اكتشفوها، فقابلوها «بالتفهم» واعترف بعضهم أمام بعض بقوة خصمهم الدينية والثقافية.

يقول شانيو رئيس مصلحة التعليم الابتدائي الفرنسي في تقرير له سنة ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين: «إن الشناقطة المسلمين منذ قرون كان لهم وما زال علماء وفقهاء وأدباء معروفون في جميع البلاد الناطقة بالعربية، ونتفهم كونهم، لغيرتهم على ماضيهم، لا ينظرون إلى حضارتنا بحماس»...

«إن الثقة معدومة بيننا الآن»(٢).

ويقول الحاكم الفرنسي لموريتانيا «لغريه».

«لقد عالجنا مشكلة التعليم فور دخولنا موريتانيا، ولكنها مشكلة حادة، لقد وجدنا أنفسنا في مستعمرات أخرى في ساحة فارغة، أمام شعوب متلهفة إلى محاكاتنا، أما في موريتانيا فإن المقاومة الإسلامية

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص/ ٣٤٠] خليل النحوي.
(٢) الوثائق الوطنية نواكشط ملف [٤٤/ ٤٢].



لنمو نفوذنا عن طريق التعليم الفرنسي بدت مقاومة صلبة، وإن الشناقطة الذين أسلموا منذ قرون، وكان لهم - وما زال - فقهاؤهم وعلماؤهم لا يمكن أن يروا حضارتنا بعين الإعجاب التي ينظر بها السود، ثم إن موريتانيا من البلاد التي تمثل الثقافة فيها قمة المجد، وبها توجد مدارس كثيرة ومكتبات تمثل شواهد حية، كمكتبة شنقيط ... وهكذا انتصب في مواجهتنا عدو قديم وقوي هو: تعليم المحاضر، وللتغلب على هذا المنافس القوي تعين انتهاج سياسة حكيمة وتطلب الأمر جهدًا كبيرًا.

وقال الحاكم الفرنسي: إن المحاضر منتشرة في موريتانيا، وتكاد تكون موجودة في كل حي بدوي حتى في أحياء القبائل المحاربة، وتتعدد المحاضر في الحي الواحد[(١)].

ويقول الإداري الفرنسي بيري: «لقد لاحظت أنه لا يوجد أي مجتمع بدوي يبلغ مبلغ الشناقطة في العلم والعقيدة والتاريخ والأدب والفقه وعلوم العربية ... إنهم يتحدثون العربية الفصحى بطلاقة ويسر أحسن مما يتحدث بها سكان تونس والقاهرة، ولا يندر أن تجد فيهم راعي إبل من أبسط الرعاة يترنم بالشعر الجاهلي»[(٢)].

هكذا وجد المحتل الفرنسي مقاومة ثقافية شديدة من الشناقطة، حتى لخص أحدهم نتيجة نصف قرن من الصراع عندما غادروا

---

(١) المصدر السابق [٤٤/ ٤٢].

(٢) الوثائق السنغالية [دكار الملف ٧٨، ٩].





البلاد قائلًا: «إن التعليم التقليدي [المحضرة] راسخ الجذور، وأنه ينال كل السكان، وأن إجراءات دمجه في المدرسة الفرنسية لم يلق رضا السكان[1].

مقاومة المحتل الفرنسي سياسيًا:

لقد كانت المقاومة السياسية رافدًا من روافد المقاومة، والتي كانت سببًا في عدم مسخ الشخصية الشنقيطية، وطمس معالم دينها وثقافتها.

قال خليل النحوي:

كان من دلائل إخفاق المدرسة الفرنسية في بلوغ أهدافها، أن تخرج منها جيل يتحدث لغة المستعمر، لكنه يفكر باللغة العربية كما يتحدث بها أيضًا، ويسعى لصالح شعبه ووطنه.

لقد قاد هذا الجيل وغذى المقاومة السياسية التي جاءت، منذ أربعينيات القرن العشرين من خلال حركات الشبيبة والأحزاب والهيئات السياسية[2].

وقال محمد يوسف مقلد: «الشيء الرائع في حياة الموريتانيين أن التأثير الفرنسي ظل تأثيرًا محدودًا لم يستطع رغم كل المحاولات أن

(١) الوثائق الوطنية نواكشط ملف [٣/ ٩].
(٢) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص: ٣٦٧].



يضعف فيهم الروح العربية الإسلامية، فبرهنوا بذلك عن مناعة قوية يستحقون من أجلها أعظم الإعجاب والاحترام[(١)].

ويقول لكرنوا: «لقد استطاعت المحاضر بوجه عام أن تصمد في وجه الغزو الثقافي الأجنبي وتؤدي مهمتها في صيانة ميراث ثقافي هو لها مدعاة فخر واعتزاز[(٢)].

هكذا شكلت المحضرة في عهد الاستعمار الفرنسي قلعة حصينة للعمود والمناعة الثقافية، وما كان للتأثير الفرنسي في بلاد شنقيط أن يظل محدودًا لولا الله عَزَّوَجَلَّ ثم جهاد المحضرة.

يقول موليين: إن سرعة نجاح الشناقطة تجعلنا نفترض أن المبشرين [المنصرين] المسيحيين في رأس الرجاء الصالح، قبل أن يتمكنوا من دخول المناطق الوسطى من القارة الإفريقية، سيلاقون هنالك مسلمين[(٣)].

ويؤكد كابي من جانبه وهو أيضًا من الرحالة على الدور الذي لعبه الشناقطة في نشر الدين الإسلامي في المناطق الإفريقية المجاورة حين يقول: إن الكثير من الزنوج يأتون إلى الشناقطة لتعلم القرآن[(٤)].

(١) شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون [ص: ٩٥]، محمد يوسف مقلد.
(٢) هو أحد الرحالة الذين تفطنوا عن الفرنسيين إلى الدور الذي لعبه الشناقطة في نشر الدين الإسلامي عبر أصقاع القارة الإفريقية.
(٣) المجتمع البيضاني [ص: ٣٠٠] لمحمدو بن محمذن.
(٤) المصدر السابق [ص: ٣٠٠].



ويقول مولين: إن الديانة المحمدية التي اعتنقها تقريبًا كل الشعوب الإفريقية التي زرتها قد أنارت عقولهم وصقلت أخلاقهم وطباعهم وحطمت في صفوفهم تلك الممارسات الهمجية التي يحتفظ بها الإنسان في حالة الوحشية[١] حتى الشناقطة دأبوا على دعوة المستكشفين والغزاة الفرنسيين إلى اعتناق الإسلام والتمسك به.

يقول صولي: توقفت في طريقي وأنا أجوب صحراء شنقيط ومررت بمخيم فاستقبلني أهل هذا المخيم بالترحاب ودعوني إلى اعتناق الإسلام، وكان الأطفال يشاركون بطريقتهم في ممارسة تلك الدعوة، فعندما حان وقت الصلاة، وذهب الجميع لأدائها صاح الأولاد ملحين عليَّ أن أصلي، وكانت نظرات بعضهم ملأى بالتهديد إصرارًا على أداء تلك الشعيرة[٢].

ويقول كايي: عندما علم الشناقطة بنبأ اعتناقي للإسلام ارتاحوا كثيرًا وشجعوني على التمسك بهذا القرار[٣].

وهذه المواقف وغيرها ليست غريبة أو وليدة أو مستحدثة على الشعب الشنقيطي، بل هي عادة وسجية عرف بها هذا القطر قديمًا وحديثًا، وهذه شهادة بعض الغربيين التي تدل وتبرهن على تعظيم الشريعة عند الشناقطة.

(١) المصدر السابق [ص: ٣٠٢].
(٢) المصدر السابق [ص: ٣٠٢].
(٣) المصدر السابق [ص: ٣٠٢].



يقول الرحالة موليين وهو يصف كيفية أداء الشناقطة للصلاة: في جميع الجهات ترى رجال دين يسجدون ضارعين إلى الله، يقلدهم في ذلك الرجال والشيوخ والنساء والأطفال، خارين سجدًا نحو الشمس [يقصد القبلة] موجهين دعواتهم [للسماء] للخالق(١).

ويقول كايّي: إن تأدية الشناقطة للصلوات الخمس ومواظبتهم عليها يوميًا وأن المسجد له مكانة عظيمة، ويلعب دورًا عظيمًا في حياتهم فضلًا عن دوره الديني، فهم يتناولون فيه قضاياهم المجتمعية والسياسية(٢).

ورغم تعامل الشناقطة مع المحتل الفرنسي إبان الاحتلال الفرنسي، إلا أن الشناقطة احتفظوا وحافظوا على ثوابت الدين الإسلامي في الأمر والنهي خاصة في مجال تحريم الخمر ولحوم الخنزير. ذلك ما يعترف به الرحالة موليين صراحة حيث يقضي فترة من الزمن في إحدى المحطات التجارية على نهر السنغال.

يقول: بينما كان التجار الشناقطة على متن سفينة كبيرة وهم في نقاشات حادة مع أحد التجار، إذ فاجأهم الفرنسيون وهم يحملون إلى السفينة خنزيرًا بريًا كبيرًا اصطادوه للتو قرب المحطة، وعلى الفور سارع الشناقطة أفواجًا إلى استخدام الزوارق لمغادرة تلك

---

(١) المجتمع البيضاني [ص: ٣٠٢] لمحمدو بن محمذن.
(٢) المصدر السابق [ص: ٣٠٢].





السفينة والابتعاد عنها لأنها بالنسبة لهم لم تعد صالحة للمقام طالما أن ذلك الحيوان النجس على متنها.

ويضيف موليين أن هلع الشناقطة كان شديدًا إلى درجة أن العديد منهم ارتموا في مياه النهر مفضلين تبلل ثيابهم على أن يتلطخوا بالاتصال بالخنزير أو بالصياد الذي يعتبر أكثر قذارة من فريسته، طبعًا لمرجعيتهم الثقافية [يقصد الشريعة][1].

هكذا الشناقطة إلى يومنا هذا يعظمون الشريعة ويعظمون مقاصد الشريعة ويبغضون المعاصي والمنكرات.



(١) المجتمع البيضاني [ص: ٣٠٥].





التواضع وقبول النصيحة عند الشناقطة

فإن التواضع وقبول النصيحة من الآخر علامة من علامات حُسن الخلق، وحسن الخلق علامة على تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، ولقد حدد رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الغاية من بعثته ورسالته بقوله: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وفي أثناء رحلتي إلى بلاد شنقيط كنت حريصًا حرصًا شديدًا على التعرف على كل شيء متعلق بالدين والأخلاق والدعوة والعلم والعادات، حتى يكون هناك أمانة في النقل.

ولقد حدث معي بعض المواقف مع بعض المشايخ الشناقطة والتي أظهرت لي سموّ خلقهم وصدق نيتهم، وحسن تطبيقهم للدين، وتقبل النصيحة من الآخر حتى ولو كان مفضولًا.

كان نائب المفتي له محاضرة أسبوعية بعد المغرب، وكان يشرح كتاب عمدة الأحكام، فأشار عليَّ بعض الإخوة وقال: ألا تحضر هذه المحاضرة، فقلت له: لا بأس. وذهبت معه، وكان من عادة الشيخ الذي توطّدت علاقتي به بعد أول لقاء، أنه يسمح لطلبته بمناقشته أثناء إلقاء المحاضرة إذا كان الأمر يتعلق بأمر مختلف فيه



بين أهل العلم، فاستوقفته في مسألة أثناء إلقاء المحاضرة، فردّ قائلًا: «أنا لم أجلس هنا لأقرر أقوال العلماء، بل جلست لأقرب الناس إلى السُّنة»، ومضى في محاضرته، ثم نظر إلى ثيابي وهيئتي فعرف أني أجنبي عن هذا البلد، فنظر إليَّ مُبتسمًا وقال: سامحني يا شيخ، أنا لم أقصد أن أرد عليك ردًّا غير مناسب، وهذا كان في جمع غفير من طلبته، ثم التقينا بعد المحاضرة وتعرف عليّ ورحّب بي، وأحسن ضيافتي واعتذر مرة أخرى. والشاهد أنه مع مكانته العلمية المرموقة كان متواضعًا وهذه علامة من علامات حُسن الخلق.

وفي محاضرة أخرى من محاضراته رأيته كغيره من علماء هذا البلد، عندهم علم غزير وحفظ عجيب، لا ينظرون إلى كتاب ولا مذكرة، فهم لا يعتبرون العلم علمًا إلا ما حفظ في الرأس، فكان يندفع كالسهم، وتخرج الكلمات وتنساب من بين شفتيه بسهولة ويسر، واستحضار للآيات والأحاديث في أمر عجيب، وأثناء المحاضرة خانته ذاكرته في تصحيح بعض الأحاديث، وهي طبيعة البشر دائمًا، قد يعتريهم بعض الخطأ والنسيان.

فرد أحد الطلبة وصحح تخريج الحديث وأيده في هذا التصحيح طالبٌ آخر. فرد الشيخ قائلًا: «اتفق الشيخان»، يقصد الطالبين، وسكت الجاهل. وأشار إلى نفسه ونسب الجهل إلى نفسه.

وهذا موقفٌ آخر: كنت أحيانًا إن لم يكن عندي ارتباط بخطبة الجمعة أُصلّي مع المفتي العام للدولة الشيخ أحمد ولد المرابط الشنقيطي، وهو رجل غزير العلم، صحيح المعتقد، محافظ على السُّنة داعٍ إليها.

كنت ألتقي به بعد الخطبة في مكتبه دائمًا، وقد سهل لي ذلك الأمر بعض طلبة العلم المغاربة المرافقين له، وبعض حراسه الذين ربطتني بهم علاقة وصداقة قوية.

فكنت أنتهز الفرصة بين الحين والآخر لأستشيره في بعض الأمور الدعوية في مصر. وأحيانًا كنت أذكر له بعض الملاحظات التي تربط بين العلم الغزير عند الشناقطة وبين الدعوة في الشارع الشنقيطي، فيكون جوابه بكل تواضع: صحيح، صدقت. ثم ما يلبث أن ينبه إلى بعض هذه الملاحظات في خطبته، والتي ربما قد يصل الحضور فيها إلى ما يقرب من ثلاثة أو خمسة آلاف من المصلين، وهذا موقفٌ آخر يضرب أروع الأمثلة في التواضع وقبول النصيحة من الآخر.

الشيخ العلامة سيدي يحيى، وهو عالم جليل وشيخ عامّة، لا تمر في شارع ولا حارة ولا سوق إلا وتسمع صوته في الأشرطة، ولا تمر على محلة إلا وسمعته يُلقى محاضرة في الراديو ولكن كثيرًا من كلماته ليست بالعربية، ولكنها باللهجة المحلية، فلفت انتباهي هذا الأمر،



فسألت عن هذا الشيخ من هو؟ فقالوا: هذا سيدي يحيى وهو مثل كشك عندكم في مصر، وله درس كل أسبوع في ولاية كذا، ولكنه يتكلم (بالحسانية) وهي لهجة محلية مثل اللهجة العامية المصرية، ولكنها أقرب لهجات بلاد المغرب إلى العربية.

فقلت لبعض الإخوة: هل لك أن تصطحبني إلى الشيخ سيدي يحيى، فقال: نعم، فاصطحبني إليه، فعرّفته بنفسي وقلت له: أنا أريد أن أحضر لفضيلتكم بعض المحاضرات، ففي أي المساجد وفي أي الأوقات محاضراتك؟ فذكر لي موعد المحاضرات، فاصطحبني بعض طلبة العلم من تونس إلى محاضرته بولاية من الولايات، وكان الدرس بعد العشاء، وكنا في هذا الوقت بعد العصر، فقلت للأخ: نحن الآن بعد العصر والمحاضرة بعد العشاء، فرد عليَّ قائلًا: ربما لا تجد مكانًا تجلس فيه خارج المسجد، فقلت له: لا بأس. وذهبنا، وتسللت أسير بين الصفوف حتى وصلت إلى باب المسجد، فإذا برجلين يقفان على باب المسجد ويقولان: المسجد مزدحم، ويمنعان الناس من الدخول فقلت لهما: إنني مصري حتى ملابسي تختلف عن ثيابكم، وأنا على موعد مع الشيخ، وهو الذي دعاني، فتبسما وسمحا لي بالدخول، واقتادني أحدهما بالقرب من مكان الشيخ، ثم صلينا المغرب وجلست في مكاني أنتظر حتى يأتي الشيخ بعد أذان العشاء،



وكنت لا أسمع إلا قرآنًا يتلى، وتكبيرًا وتحميدًا وتسبيحًا، وحضر الشيخ وسلم عليّ ثم جلس، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: وهو الشاهد: نلقي الدرس اليوم باللغة العربية وقليل من الحسانية نظرًا لوجود بعض الضيوف الذين لا يفهمون الحسانية، فألقى محاضرته، وشكرته على أنني تسببت له في حرج بحضوري المحاضرة فغيّر طريقة الإلقاء إلى اللغة العربية الفصحى بسببي، وخرجت من المسجد فوجدت ما يقرب من ثلاثة آلاف من الرجال والنساء يحضرون المحاضرة؛ لما عندهم من تعظيم عجيب لدين الله عَزَّوَجَلَّ.







الإنصاف والعدل عند الشناقطة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العدل نظام لكل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الدين من أخلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزه به في الآخرة»[(١)]، وصدق رحمة الله عليه، فالعدل قد أمر الله به في كل شيء، ونحن في مسيرتنا الدعوية في حاجة ماسة إلى تطبيق العدل والإنصاف بين الاتجاهات الدعوية العاملة على الساحة سواء أكانوا أفرادًا أم جماعات أم كيانات دعوية صغيرة أم كبيرة.

ولقد كنت أثناء إقامتي في بلاد شنقيط كثير السؤال لإخواني الدعاة سواء أكانوا من أهل شنقيط أم من المشايخ الأفارقة عن كيفية التعامل مع الفصائل الدعوية العاملة بالكتاب والسنة الموجودة على الساحة، المهم أنها عاملة بالكتاب والسنة وليس عندها انحراف عقدي؛ لأننا في الحقيقة نعاني معاناة شديدة من التجاذب التبعي ومن الجهوية الضيقة التي تضر بالإسلام.

(١) الاستقامة (٢/ ٢٤٧) لشيخ الإسلام ابن تيمية.





فكان جوابهم في الحقيقة في غاية الإنصاف والعدل، ووفق ما ندين به لله عَزَّوَجَلَّ، وهو أن يكون الإنسان على مسافة واحدة من كل الاتجاهات الدعوية التي تتخذ الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة مرجعية لها، وأنه لا ينبغي أن تكون الندية حاضرة عند الدعاة، والجهوية والحزبية الضيقة المنغلقة ليست جيدة، وهي مضرة للدعوة ولا تخدمها، بل يتسع الإنسان صدره حتى للمخالف ويرحمه ويناصحه ويشفق عليه، ويأخذ بيده إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وإن كل من ينضم لركب الدعوة، ويسير في ركابها هو كسب للإسلام وتمكين لدين الله عَزَّوَجَلَّ.







المرأة الشنقيطية

لا شك أن المرأة تُشكل نصف المجتمع، وتلدُ النصف الآخر، فهي بذلك المجتمع كله. ولقد أخبر صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأشار إلى ذلك حيث قال: «**النساء شقائق الرجال**» والمرأة مطالبة بما يُطالب به الرجل في الغالب من التكاليف الشرعية، والمرأة لها دورٌ عظيم تجاه دينها من تعلم العلم الشرعي والفقه في الدين، والدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعوة غيرها من النساء الشاردات إلى الرجوع إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ. وإلى طاعة الله تعالى.

والمرأة الشنقيطية يغلب عليها الصلاح؛ فهي محجّبة بحجاب الله متسترة، لا تخالط ولا تصافح الرجال، ويغلب عليها الاهتمام بالدين علمًا وعملًا، وهي تعظم شعائر الله تعظيمًا عجيبًا، والمرأة في بلاد شنقيط لم يكن لها دورٌ يُذكر في تعلم العلوم الشرعية ونشرها قبل قيام دولة المرابطين في القرن الرابع الهجري، فعندما قسم أبو بكر بن عمر أفراد الدولة إلى صناع وحرفيين وزراعيين، ورعاة للغنم والإبل والبقر، ومجاهدين، وعلماء وطلبة علم وهم الذين كانوا يتسمون بأصحاب (الزويا)[١].

(١) **الزويا**: هم في اصطلاح الموريتانيين: مجموعة القبائل المهتمة بالعلم والدين، ويمتازون بدراسة العلوم الشرعية، واللغة العربية، وإقامة شعائر الدين الإسلامي، ورغم شظف العيش، وقساوة الحياة البدوية الصحراوية، فقد ظلوا



اقتصر تعلم القرآن وعلومه والعلوم الشرعية في البداية على نساء العلماء وطلبة العلم والفقهاء من أزواجهم وأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم وجواريهم، ثم انتقل بعد ذلك إلى شرائح المجتمع من النساء الأخريات.

قال النحوي حفظه الله:

كان لبلاد شنقيط الحظ الوافر للاهتمام بالفتاة؛ فالفتاة تتعلم القرآن كما يتعلمه الطفل، وترتقي إلى المحضرة في حيها فتتلقى من المعارف ما يتلقى الطفل، إلا أن غالب شأن النساء يصرفن اهتمامًا زائدًا إلى دراسة السيرة النبوية الشريفة.

وكان لابد للمرأة من رصيد معرفي زكي، لأنها هي بحق مدرسة الطفل الأولى تلقنه أول دروسه، من تعليم الحروف الهجائية إلى تلقين القصص التاريخي، إلى تدريس القرآن، إلى تحفيظ المتون وتفسيرها، والقاعدة العامة هي أن وراء كل رجل عالم امرأة، مهدت له الطريق إلى الالتحاق بالمحضرة في مرحلتها المتوسطة أو العليا.

محافظين على تعلم العلوم الإسلامية وتعليمها، وإقامة الشعائر الدينية، ولم يُثنهم عن ذلك صعوبة الترحال ولا تنائي الديار، ويمتاز أهل الزويا بشيم تابعة كلها من صميم تعاليم الإسلام، وهي التقوى، والورع والعفة والحلم والصبر والأناة.

وسبب تسمية أهل الزويا بهذا الاسم: لملازمتهم للزوايا وهي جمع زاوية، ويسمون بالمرابطين لملازمتهم مواضع العبادة، التي هي الربط جمع رباط، وقد أطلق عبد الله بن ياسين هذا الاسم على أصحابه، ومن ثم أصبح علمًا على هذه القبائل، كما يُطلق عليهم اسم الطلبة لطلبهم العلم واشتغالهم به، ولقد قامت الزويا بدور عظيم في نشر العلوم الإسلامية، وتطوير الآداب والعلوم في الصحراء، وفي غرب إفريقيا. الشنقيطي ومنهجه (ص٩) لسميرة بنت صقر.



ولكن دور المرأة لا يقف عند هذا الحد، فمن الشنقيطيات نساء تصدرن للمشيخة المحضرية، فكنَّ يدرسن الطلبة والطالبات ما يدرس كبار المشايخ(١).

وذُكر أنّ العلامة محمد الأمين الجكني الشنقيطي، وكان من أبرز علماء الحجاز ونجد، درس الأدب على زوجة خاله، وتلقى عنها الأجرومية، ودروسًا واسعة في أنساب العرب وأيامهم والسيرة النبوية، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي ونظم عمود النسب في أنساب العرب(٢).

وكذلك العلامة الخليل النحوي درس على والدته فاطمة بنت فتى وتلَّقَى عنها متون السيرة النبوية والأنساب(٣).

والمرأة الشنقيطية تبدأ بإسماع طفلها القرآن والمتون وهي تُرضعه حتى تتعود أذناه على السماع والتلقي من الصغر، ثم تدفع ببناتها ليتعلمن القرآن وحفظه بطريقة الحفظ من اللوح الخشبي(٤) مثل طريقة الحفظ عند الذكور، فتُتمّ حفظ كتاب الله قبل لحوقها بالدراسة العلمية بالمدارس العادية، وتحرص على تعلم العلوم الشرعية أثناء الدارسة، ولا تعارُض بين الاثنين.

---

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط [ص: ٢٨٩] الخليل النحوي.

(٢) المصدر السابق [ص: ٢٨٩].

(٣) المصدر السابق [ص: ٢٨٩].

(٤) راجع باب المحاضر الشنقيطية.



ثم تتدرج في تعلم العلوم الشرعية. فمنهن كثيرات حافظات لكتاب الله برواية ورش وقالون، ومنهن كثيرات يحفظن آلافًا من المتون الشرعية وشروحها سواء في الفقه أم الأصول أم العقيدة، ومنهن حافظات لموطأ مالك كحفظ الرجل للفاتحة، ومنهن شاعرات يحفظن آلاف الأبيات من الشعر، ويُجدن اللغة العربية بطلاقة ورسوخ وكثير منهن عندهن محاضر لتحفيظ القرآن وعلومه، وتعليم العلوم الشرعية، وعندهن حرص عجيب على إقامة الشعائر، فكنت أمرُّ أحيانًا بالأسواق أثناء الأذان، فأجد حالة استنفار عجيب عند النساء التاجرات، فعندما يسمعن الأذان يتركن المحلات دون إغلاق ويذهبن لأماكن الوضوء ثم يذهبن إلى الصلاة في الأماكن المخصصة للصلاة بالأسواق، وعندهن محافظة عجيبة على الذكر والاستغفار، ويحرصن على عدم الاختلاط بالرجال، والمحافظة على السنة، فبارك الله فيهن ونفع بهنّ الإسلام والمسلمين.

هذا ما يسر الله لي جمعه عن بلاد شنقيط، فله الحمد على توفيقه، وله الثناء الحسن.

هذا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم







الفهرس






شبكة
الألوكة


سيصدر قريباً بإذن الله تعالى كتاب
إطلالة على
غرب أفريقيا

